https://doi.org/10.26682/hjuod.2021.24.1.24
مجلة جامعة دهوك، المجلد: 24، العدد 1 (العلوم الانسانية والاجتماعية)، ص 463-492، 2021

القيم الحضارية لمعارك صلاح الدين الايوبي

(معركة حطين وفتح بيت المقدس –أنموذجا)

سيبان حسن علي
قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية، جامعة دهوك، اقليم كوردستان–العراق

(تاريخ استلام البحث: 19 نيسان، 2021، تاريخ القبول بالنشر: 21 حزيران، 2021)

الخلاصة

تهدف الدراسة الى القاء الضوء على القيم الحضارية وما تحمله من المعاني الانسانية والاخلاق الحميدة والفاضلة والتي برزت في حروب صلاح الدين –معركة حطين وفتح بيت المقدس–لأهمية هذا الحدث ومانتج عنه من مواقف مميزة، ولعل عرض أراء بعض مؤرخي الغرب في تقييم شخصية صلاح الدين القيادية والانسانية يعزز من قيمة الدراسة باهدافها ومعطياتها.

شملت الدراسة الى التعريف بالقيم الحضارية، وما عبر عنه المؤرخين والمستشرقين من مشاعر الرضا عن مواقف صلاح الدين، لاعطاء صورة واضحة للقارئ عن مواقف الغرب المسيحي وما وصفوه من المديح والثناء عليه وعلى سيرته المحمودة فبرزت ابعاد شخصيته وملامحها.فضلا عن تركيز الدراسة على تبيان مقدرة صلاح الدين العسكرية والديبلوماسية وكفاءته القيادية في المعارك وحسن تصرفه وشهامته مع أسرى معركة حطين.

وبرزت المعاني الاخلاقية في هذة الدراسة اثناء فتح القدس من خلال التفاوض ومنح الامان لاهل القدس والتساهل معهم في كل امورهم من حيث البقاء او الخروج من المدينة، واخيرا السماح للصليبين والفرنجه على حد سواء للعودة الى اوطانهم.

الكلمات الدالة: القيم الحضارية، صلاح الدين، معركة حطين، فتح بيت المقدس

المقدمة

تاتي اهمية هذه الدراسة من خلال التعرف على مجموعة من المفاهيم الاخلاقية والمبادئ العليا التي بمجموعها تمثل القيم الحضارية، تلك القيم التي برزت في مواقف صلاح الدين الايوبي في معاركه وحروبه و تحديدا معركة حطين و فتح بيت المقدس، فكان من الاهمية تسليط الضوء على هكذا نوع من المعارك المصيرية التي قلما تجد بروز المعاني الانسانية و التعامل الايجابي مع العدو كما فعل صلاح الدين، من هنا تأتي اهمية الدراسة.

كان من اهداف الدراسة، اظهار قيم الاسلام و مادعا له و التي تجلت في صورة القائد صلاح الدين وان كان محاربا مع خصمه الصليبين الى ان موافقه اعربت عن قيمه و مبادئه الانسانية في عصر اتسم بالعنف و الصراع الديني بين المسلمين و الصليبين، كما اظهرت الدراسة موقف الصليبين و بعض ملوكهم السلبية اتجاه صلاح الدين و قيمه الانسانية، و هذا ما عبر عنه عددا من مؤرخي الغرب، وسعت الدراسة تبيان الصراع بين المسلمين و المسيحين على القدس ومحاولة كل طرف منهما التمسك بها والدفاع عنها من منطلق ديني يعود الى اهمية المدينة وقدسيتها لدى الديانتين، وعلى الرغم من تحرير صلاح الدين للقدس وعودتها للسيادة الاسلامية الا انه احترم المشاعر الدينية للمسيحين وحاول ارساء اسس السلم لأهل القدس بين المسلمين والمسيحين واليهود المقيمين بها.

نتقسم الدراسة، الى مقدمة ومبحثين رئيسيين: شملت المقدمة، التعريف بالقيم الحضارية وأهميتها وبمفهومها

الاسلامي، وتبيان بعض تلك القيم وسمات الحضارة وعناصرها وفق نظريات عدد من رواد الفكر الاسلامي،

اما المبحث الأول: فخصص لأحداث معركة حطين وخطوات سلطان صلاح الدين الدبلوماسية في عقد الهدن والمعاهدات ومن ثم تعزيز الجبهة العسكرية وتهيئة الظروف المناسبة لتنفيذ خطته العسكرية والتي اثمرت بالنتائج المرجوة، واكرام الاسرى من القادة الصليبيين.

وجاء المبحث الثاني : ليتناول الفتح الصلاحي للقدس، ليكون خاتمة لمواقفه ومبادئه الاخلاقية وليكمل الصورة الحضارية لمواقف القائد الشجاع ومشاركته لجنوده في فتحها ثم التفاوض ومنح الأمان، وما تجلى فيه من القيم الإنسانية بتحديد الفدية المتواضعة على اهل المدينة واعفاء الكثير منهم، وأوجه التسامح في إطلاق سراح زوجات الفرسان والملوك معززين مكرمين، ثم السماح باستقرار نصارى القدس وعودة اليهود لها والإبقاء على كنيسة القيامة، وماعزز ثقة خصمه به هو سماحه بخروج الفرنجة بعد تجيزهم بالغذاء والكساء ودفع الاموال لتجار السفن لتامينهم حتى عودتهم الى ديارهم في الساحل الاوروبي .

– تعريف القيم الحضارية:

تأتي كلمة القيم في القواميس العربية بمعنى ((القومة)) ومعناها النهضة، والقويم بمعنى المعتدل أي استقامة واعتدل واستوى، والقوام ومعناه العدل، وفي التنزيل العزيز ((وكان بين ذلك قواما)) (الفرقان: اية 67)، وأمر قيم: مستقيم، والأمة القيمة بمعنى: المستقيمة المعتدلة .(مُحَمَّد امين الحق،2012، ص336)

ويذكر الفيروز ابادي أن ((القيمة بالكسر واحدة القيم، وقومت السلعة واستقمتها: ثمنتها، وقومته: عدلته فهو قويم ومستقيم)) وتشير القيمة الى الخصلة الحميدة والخلة الشريفة التي تحض الأنسان على الاتصاف بها .(فيروز ابادي،1991، ص869)

اما الحضارة، فهي نظام اجتماعي يعين الانسان على الرفعة والتقدم في انتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، واينما وجد الاستقرار والامن والانسان وجد في نفسه دوافع التطلع وعوامل الابداع والانشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعة ببلاده تستنهض للمضي في طريقة الى فهم الحياة وازدهارها ، وبالاختصار الحضارة، هي الرقى والازدهار في جميع الميادين والمجالات. .(حسين مؤنس، 1977، ص187)

وتعزوا القيم التي آثرنا ان نأخذ بمفهومها الإسلامي الى صفات إنسانية إيجابية راقية منضبطة بضوابط الشريعة الإسلامية تودي بالإنسان الى السلوكيات الإيجابية في المواقف المختلفة التي يتفاعل فيها في ضوء معيار ترتضيه الجماعة، لتنشئة أبنائها وهو الدين والعرف واهداف المجتمع، وتصبح هذه القيم تربوية كلما أدت الى النمو السوي لسلوك الفرد، وكلما اكسب بفضل غرسها في ذاته مزيدا من القدرة على التميز بين الصواب والخطأ وبين الخير والشر ، ويمكن باتباعها والحرص للسمو بها ، ان يصل الى درجة الكمال . .(مُحَمَّد امين الحق، ص337)

وبهذا فان رسالة الإسلام وما أكده من قيم أخلاقية تربوية على أسس الاستقامة والعدالة والسمو الأخلاقي بكافة اوجهها، انما هي الدعامة الأساسية لنضوج الحضارة وتقدمها وتواصلها المعرفي والعلمي والعمراني بكافة المستويات، فكانت رسالة الإسلام بخصائصها هذه الى البشرية جمعاء، لتسهم في تقدم الأمم بمختلف صوره. (للمزيد عن خصائص القيم الحضارية بمفهومها الإسلامي، ينظر: المرجع السابق، ص ص338-339)

فان المقصود بالقيم الحضارية، انما مجموعة من الاخلاق الحميدة والفاضلة التي تنمي وتعزز الجانب الإيجابي والاصلاحي في حياة الناس، ويعتبر التزام بها من عوامل تحقيق السعادة والعمران والتقدم للمجتمعات البشرية في حياتهم عموما. (عزت السيد احمد، 2017، ص137)

وهنا نجد للقيم دورا مهما الى جانب الحضارة في حياة الفرد والمجتمع، ويبدو ذلك من خلال انتقاء الافراد الصالحين لبعض المهن والمهام، مثال رجال السياسة والدولة ورجال الدين، وما

يتصفون بها من العدالة وخلق واستقامة وصفات إنسانية وغرسها فتؤدي الى التحضر و إقامة المجتمعات وتطورها وبناء الأوطان والدول. (راغب السرجاني، 2011، ص3-32،71-80)

ويشير ابن خلدون في مقدمته ،عن تطور المجتمعات وتحضرها " اعلم ان هذه الاطوار طبيعة للدول فان الغلب الذي يكون به الملك انما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ولايكون ذلك غالبا الا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرفة واتساع الأحوال والحضارة انماهي تفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه". (ابن خلدون، 1978، ص172)

وبناء الأوطان والدول عادة تحتاج الى ولاة أمور متصفين بالقوة التي تستقيم بها الحياة وتحفظ الحقوق وتدفع المظالم، وتستكمل الأهداف بمبادئ العدالة والمساواة واحقاق الحق واجماع الكلمة والوحدة وإرهاب العدو دون الاعتداء او الطغيان ،وإرساء السلام لينعم المجتمع بأسباب النعيم والرفاهية ،وهي تسهم بذلك في اسعاد المجتمع وتدفع عنه غوائل الفساد والشر. (راغب السرجاني،ص71_90، 93_95)

ويذكر ابن خلدون، ان عناصر القوة باي بلد مبني على اساسين "ان مبنى الملك على اساسين لابد منهما: فالأول الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني بالمال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج اليه الملك من أحوال ". (ابن خلدون، ص188)

وأكد العديد من رواد الفكر السياسي الإسلامي قبل وبعد ابن خلدون على قوة الدولة التي تكمن بهذين العنصرين معا لان احدهما يكمل ويحمي الأخر والاثنان معا يحميان الدولة والسلطان، (للمزيد عن الدولة الايوبية وتحديد عناصر القوة في الدولة ومواقف السلطان صلاح الدين، ينظر: حكيم عبد الرحمن البابيري،2010، ص163) فيقول ابن قتيبة الدينوري " لا سلطان الا برجال ولا رجال الا بمال .." (ابن قتيبة الدينوري،1925، ص20) ويقول الغزالي "ان الدين بالملك والملك بالجند، والجند بالمال والمال بعمارة البلاد ". (الغزالي،1987، ص36)

وهكذا نجد ان العناصر المادية (الجند والمال) قد توفرت بدولة السلطان صلاح الدين، فنجد ان الجند هو سلاح الدولة ودرع لحماية الشعب وامن لحدود في فترة مواجهة الحملات الصليبية، والمال وسيلة للبقاء واستمرار الدولة ورفاهية الرعية، وقد استكملت بالعناصر المعنوية لتزيد من قوة السلطان صلاح الدين وتنمي دولته، وهي تحقيق العدالة والتمسك بالفضيلة وهي الاخلاق الحسنة من خلال مواقفه من حفظ العهود واكرام الاسرى الصليبين، فضلا من مواقفه التي برزت فيه الإنسانية والرحمة من خلال منح الأمان وأوجه التسامح والعطف مع اهل القدس.

اثارنا في هذه الدراسة ان نبين القيم الحضارية التي عززها صلاح الدين وهو في ساحة الحرب وايام السلم عسكريا وديبلوماسيا، لتبرز القيم الأخلاقية والإنسانية اثناء وبعدحطين وفتح بيت المقدس.

1: القيم الحضارية التي تجلت في معركة حطين

1-1: عقد الهدن وحفظ العهود:

عرف القائد العسكري صفة حفظ العهود عند عقد الهدن واجراء الصلح، وقد عرف صلاح الدين بحفظه للعهود والمواثيق، فقد كان اميناً للعهد الذي قطعه على نفسه مع الملوك الصليبية عموماً ومنهم ملك بيت المقدس، (سعداوي، 1975، ص146) لكن الامير أرناط (رينولد دي شاتيون) صاحب الكرك[1]. كان من اشد الصليبيين مخالفة للعهد، فكان سبباً في توريط مملكة بيت المقدس في مشاكل مع صلاح الدين اذ خالف شروط المعاهدة وقام في صيف سنة (577هـ/ 1181م) بحشد قواته وسار الى تيماء الواقعة بين الشام و وادي القرى على طريق الحجاج المسلمين، ولكن الامير فروخشاه (ت578هـ/ 1182م) ابن اخ صلاح الدين ونائبه بدمشق اسرعا الى غزو الاردن وحصنى الكرك والشوبك ونهبا وخربا، مما جعل أرناط يعجل بالعودة للدفاع عن بلده،

ونهب في عودته قافلة غنية بثروتها وقطع طريق الحج نهائياً عازماً للزحف الى المدينة المنورة للاستيلاء عليها. (ابن العديم، 1996، ص409؛ المقريزي، 1997، 92/1)

ظل جيش دمشق يراقبه طويلاً حتى يعود ففرق جيشه وقد افزع هذا العمل جميع المسلمين وانتبهوا للجبهة الجديدة، اما ملك القدس ففزع من خرق أرناط للهدنة مع صلاح الدين لان مملكته كانت في حاجة اليها بهذه الظروف، وردع صاحبه فلم يسمح له، فجهز جيشاً كان في الظاهر وعلى حد قول مؤرخهم وليم الصوري (ت583هـ/ 1186م) لقطع الطريق على صلاح الدين في عودته من مصر مطلع سنة (578هـ/ 1182م) وفي الواقع كان الجيش لمعاقبة أرناط وتاديبه لمخالفة اوامر الملك، (ابن العديم، ص409) وقد زاد في فزع الافرنج، ان صلاح الدين كتب الى ملك المقدس يطلب ان يوقف صاحبه عند حده وان يسرع في رد اموال المسلمين واسراهم، ولكن أرناط رفض الاصغاء الى الامراء، واضطر ملك القدس الى اخبار صلاح الدين بعجزه عن اخضاع حليفه وهذا يعني سقوط هيبة الملك وامكانية تجدد الحرب من جهة اخرى. (ابن شداد، 2000، ص262)

وقد لام صلاح الدين الملك بلدوين الرابع [2]ملك بيت المقدس وذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين، وطلب بالتعويض، فاقر الملك الصليبي عدالة دعواه لكن أرناط ابى ان يعترف بخطئه، ورفض ان يدفع التعويض وسانده اصدقاؤه في البلاط الملكي، فعجز الملك بلدوين الرابع عن حل المشكلة واخبر صلاح الدين بعجزه عن اخضاع احد امرائه واقناعه باحترام الهدنة المعقودة بين المسلمين. (العبري، 1991، ص207)

وهنا أدرك صلاح الدين ان لا جدوى من احترام العهود مع هؤلاء، وحدث في الوقت نفسه ان تحطمت سفينة القتها الرياح الى بحر دمياط وعليها ألف وسبعمائة من الحجاج والجند وكانوا يعتقدون انهم محميون بالهدنة، لكنهم لقوا مصيراً مختلفاً، لان أرناط سبق ونقض المعاهدة، فالقى صلاح الدين بهؤلاء في الاسر. (ابي شامة، 185/3)

اشترط صلاح الدين لاطلاق سراح هؤلاء الاسرى ان يحرر أرناط أسرى المسلمين ويطلق سراحهم ويرد الغنائم التي استولى عليها، لكن أرناط رفض للمرة الثانية مما ادى الى تأزم الامور حتى وصلت حد الصدام. (ابن العديم، ص410؛ ابي شامة، 185/3)

ويقول وليم الصوري مؤرخ الصليبيين: ((قدم صلاح الدين بتحد مباشر، فجاء بمطالب يستحيل عمليا تلبيتها، واضاف كانذار اذ لم يستجب ملك القدس لهذه المطالب فسوف يحتفظ بالسفينة كتعويض، وسيلغي الصلح)) .(ابن شداد، ص265؛ ابن العديم، ص409)

ويبدو ان صلاح الدين حاول القيام بحركة إلفات نظر للصليبيين وجعلها ورقة ضغط عليهم عندما اسر المسلمون أكثر من الفين وخمسائة حاج فرنجي كانت سفنهم جنحت الى مصر بعدما كانوا في طريقهم الى بيت المقدس، فامر بحبسهم ثم راسل بلدوين عارضاً إطلاق سراحهم مقابل السلع والسبي التي نهبها أرناط، فرفض المبادلة ودعا فرسان الصليب[3] السيطرة على مكة والمدينة واقسم ان ينبش قبر الرسول (صلى الله عليه وس لم) وارسل بعضا من رجاله لهذه المهمة مما اضطر صلاح الدين لارسال جيش من دمشق الى هناك لايقافهم. (المقريزي، 1-79)

قطع أرناط اشجار غابات الكرك ومعظم نخيل العريش، وحملت الى قلعة الكرك حيث طلب من الرهبان صنع بعض المراكب كما وطلب من صليبية عسقلان صنع عدد من المراكب الصغيرة والخفيفة قام بنقلها مفككة على الجمال الى ساحل بحر الاحمر (بحر القلزم) ثم جزها بالرجال والالات القتالية، وخصص مركبتين لمحاصرة جزيرة قلعة ايلة [4]مانعاً السكان من الوصول الى مصادر مياه الشرب، فيما اكمل باقي الاسطول طريقه الى عيذاب ووصل بعضهم الى باب المندب وعدن، واحرق الاسطول ستة عشر مركباً للمسلمين، واستولوا على مركب لنقل الحجاج من عيذاب، كما استولوا على مركبتين محملين بتجارة وبضائع من بلاد اليمن، ودمروا

مؤن الحجاج في ساحل عيذاب. (ابن شداد، ص265؛ شبارو، د.ت، ص151)

بعث صلاح الدين الى مصر قائده حسام الدين لؤلؤ(596هـ/1199م) لبناء اسطول في الاسكندرية،(المقريزي، 190/1) فقام حسام الدين بانشاء الاسطول (المصدر السابق، 191/1) وقسمه الى قسمين: الاول غادر الى قلعة ايلة فاستولى على المركبتين هناك، والقسم الثاني ذهب الى عيذاب لانجاد المسلمين، ثم عاد لؤلؤ ليواجه الصليبيين في الساحل، كان عدد رجال أرناط أكثر من ثلاثمائة رجل بقليل ومعظمهم قتل بقدوم لؤلؤ وقواته. (ابن شداد، ص265)

قامت جيوش بلدوين الرابع بحماية قلعة الكرك مرتين من هجمات صلاح الدين في عام (579-580هـ/ 1183-1184م) اذ بدا صلاح الدين بتحضير الجيوش للحرب على طول منطقتي مصر وسوريا وانتهت بعقد صلاح الدين الهدنة مع بلدوين مدتها أربع سنوات. (توفيق، ص69)

وفي عام (583هـ/ 1185م) توفي بلدوين الرابع وخلفه بلدوين الخامس الطفل الذي لم يقتنع أرناط بوجوده في الحكم، فلم يعش بلدوين الخامس [5] ، وتزوجت امه من مى دى لوزجنان ليتولى حكم بيت المقدس. (العبري، ص207) أكثر من سنة لإصابته بمرض الجذام، فاعاد أرناط الكرة محاولاً السطو على قافلة ضخمة عائدة من الحج وشاءت الاقدار ان يهيئ لصلاح الدين فرصته دون ان يكون هو الناكث بالعهد اذ كثيراً ما حافظ على العهود والمواثيق الاّ انها كانت تنكث من قبل الطرف الاخر، فقد نقض الامير أرناط، عندما هاجم قافلة تجارية كانت متجهة من الشام فاستولى عليها والقى بافرادها في حصن الكرك وراح يقول لهم: ((اين مُحَمَّدكم دعوه ياتي لنصركم...)). (ابن شداد، ص272؛ ابن العديم، ص409)

وكالعادة نكث الطرف الاخر للهدنة ((فحاكم الكرك نال لقباً لا يحسد عليه كخارق للمعاهدات)). (لين بول، ص73)، فغضب صلاح الدين لهذه الفعلة وبادر الى الاحتجاج لدى أرناط ثم الى جان دي لوزجنان .(543-544هـ/ 1149-1150م)

لكن صاحب الكرك ابى الاصغاء الى مذكرة السلطان واستخف بتهديده، ورفض اوامر ملك القدس باطلاق سراح الاسرى واعادة ما سلبه منهم، فاشتد غضب صلاح الدين واقتسم لينتقمن منه شر انتقام فنذر السلطان دمه واعطى الله عهداً ان ظفر به يستبيح دمه لتطاوله على شخص الرسول مُحَمَّد (ﷺ)، واعتبر عدوانهِ على القافلة وعجز لوزجنان عن تسوية الامر نقضاً للهدنة، وقرر اعلان الحرب على مملكة القدس. (ابن الوردي، 1996، 94/2)

وكانت هذه المرة الثالثة، من نوعها واحتج صلاح الدين احتجاجاً كبيراً يفسر المؤلفون الغربيون سببه ان اخت صلاح الدين كانت بالقافلة ومن بين الاسرى. (لين بول، ص174؛ سعداوي، ص671)

وهو تفسير ليس له وجود في المراجع العربية ما يؤيده ولم يعير أرناط لهذا الاحتجاج باي اهمية ولم يذعن لاوامر الملك لوزجنان باطلاق سراح القافلة بل هدد بترصيد القوافل في المستقبل مما اثار حفيظة صلاح الدين، غير ان الثابت والمحقق ان اخت صلاح الدين لم تكن ضمن أسرى القافلة وانما كانت في قافلة اخرى جاءت فيما بعد بصحبة ولدها حسام الدين مُحَمَّد بن عمر لاجين (ت616هـ/ 1220م). (المرجع السابق، ص671)

وحسب وجهة نظر المؤرخين ان صلاح الدين اتبع استراتيجية النفس الطويل لاستنزاف العدو وإنهاك قواه كي يتمكن هو نفسه من فرض زمان ومكان المعركة الفاصلة عندما تتهيأ الظروف الداخلية والخارجية من حوله. (غوانمة، معاهدات الصلح، ص36)

كان صلاح الدين يعتقد ان الحرب بينه وبين الصليبيين قد تقتصر على مملكة القدس وحدها، وذلك لان ريموند الثالث (ت582هـ/ 1187م) أمير طرابلس كان على صلات ودية معه (ابي شامة، 184/3؛ العيني، 2010، 63/2)

وبوهيمند الثالث (ت597هـ/ 1201م) أمير انطاكية جدد الهدنة المعقودة بينهما. (ابوشامة، 184/3)

وهكذا لما وجد صلاح الدين تكرار نكث العهود من قبل الجانب الصليبي وعدم صفاء النوايا، ورغبة بعضهم في خرق الهدنة بهجماتهم المتكررة وعدم قدرة الاخرين على ردعهم، قرر ان يتهيأ للرد والهجوم عليهم بعد اتخاذ خطوات الاستعداد وعقد التحالفات وتهيئة الاجواء المناسبة لذلك.

2-1: استعداد صلاح الدين وتعزيز الجبهة داخلياً وخارجياً:

وعلى الرغم من ان جميع الحروب التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين عقب توليه سلطنة مصر بين سنتي (573-576هـ/ 1177-1180م) لم تتخذ صورة الحرب الشاملة ولم يترتب عليها أي تغير في الاوضاع الاقليمية غير أن ذلك لم يقلل من اهميتها (السبكي، 344/7) فقد استطاع صلاح الدين اثبات وجوده بكل ثقة واعتزاز بعد الخسارة التي منيه بها بعد معركة الرملة [6]. حتى وصفه استانلي لين بول ((بالقائد العظيم الذي لا يستسلم)). (1995، ص140)

كما حمل الصليبيين على توقيع هدنة معه في اواخر سنة (580هـ/ 1184م) لمدة أربع سنوات انصرف خلالها لتوطيد حكمه وتثبيت دعائم سلطته وبناء قاعدة قوية لمواجهة الصليبيين في بلاد المشرق. (العبري، ص22؛ العيني، 27/2)

ومن الجدير بالذكر ان توفر عوامل سياسية واقتصادية وادارية لتكون قوة دافعة لصلاح الدين في امكانية المواجهة بعد أن تم نقض الهدنة من الجانب الصليبي، فعلى المستوى السياسي كان لتعزيز الجبهة الداخلية واستقرار الاوضاع خاصة بعد ارتباط الموصل معه بصلح سنة (582هـ/ 1186م) ودخول صاحبها عز الدين مسعود (ت589هـ/ 1193م) في طاعته عن طريق الحكم الذاتي. (ابن العديم، 82/3؛ ابن تغري بردي، 28/6)

الى جانب تاييد الاراتقة المستمر له فضلاً عن استمرار الهدنة بينه وبين الاسماعيلية (رستم، 2009، 294-296) في شمال الشام وكان هذا على المستوى السياسي الاسلامي، اما على المستوى الصليبي فقد تحكمت الخلافات ودب الصراع بين ملوكهم حول عرش مملكة بيت المقدس على أثر وفاة الملك بلدوين الخامس، فقد حدث ان التجأ ريموند صاحب طرابلس الى السلطان صلاح الدين عام (582هـ/ 1186م) طالباً مساندته ضدهم لخلاف بينه وبين ملك بيت المقدس والداوية حول الملك فكان من عوامل اضعاف الفرنج امام صلاح الدين. (ابن شداد، ص258؛ العبري، ص203)

واخيراً فان اقسام كثيرة في شمال بلاد شام لاتزال بيدهم على حين بقيت المراكز الصليبية من ناحية الشمال الغربي والغرب بيد اصحابها، ولم تتعرض هجماته مثلما تعرضت له بقية مراكزهم في شمال وجنوب مملكة بيت المقدس فلا تزال في قبضتهم مثل: جبله، اللاذقية، صهيون، بكاس، الشغر وغيرها وتلك المناطق تقع غرب حمص، وبارين والتي تشرف على سلسلة جبال لبنان وان معظم تلك القلاع والحصون لم يتم فتحها الا بعد فتح بيت المقدس. (الاصفهاني، 2003، ص50؛ ابي شامة، 74/2)

هذا الى جانب موقف أرناط العدائي مع صلاح الدين جعله في موقف الشبه معزول سياسياً عن ملوك الفرنجة الصليبيين بالشام منفصلا عن الانتصارات المتلاحقة التي حققها السلطان ضدهم فقد ساعدت بدورها على تحديد مملكة بيت المقدس عن طريق احاطتها بمناطق نفوذ اسلامية وعزلها عن باقي القوى الصليبية بالشام. (السبكي، 344/7)

كما عمد صلاح الدين الايوبي الى جانب ما استخدمه من صيغ التحالف في عزل الصليبيين فلجأ الى التحالف السياسي مع كل عدو خارجي قبل ان يخوض المعركة الحاسمة، كمحالفاته مع المدن الايطالية من جهة والمدن البيزنطية من جهة اخرى. (رانسمان، 704/2؛ غوانمة، 1982، ص27) وهنا يصف استانلي لين بول ان صلاح الدين تمتع بالرصانة والعقل وهو يتهيأ للحرب وحاول ان يعقد أواصر الصداقة مع القوى الأخرى للتفرغ للاخرين بحكم حكمته رباط جاشه واصفا إياه: ((كان صلاح الدين كوالده حصيفاً عاقلاً ذكياً... وكانت حياته قائمة على مبادى رباطة الجاش والحكمة)). (1995، ص38)

فمن المعلوم انه في سنة (577-578هـ/ 1180-1181م) استقبل صلاح الدين رسولاً من قبل الامبراطورية البيزنطية الكسيوس كومتين الثاني (564-578هـ/ 1169-1183م) وعقد معه صلحاً وطد فيها اوامر الصداقة والسلام بين الدولتين كفل لصلاح الدين بموجبه عدم مساهمة الاسطول البيزنطي في اي هجوم على مصر، ومن ذلك التاريخ اصبحت علاقة مصر بالدولة البيزنطية ودية للغاية واستمرت بيزنطة في الاحتفاظ بالعلاقة الحسنة مع صلاح الدين نكاية بالصليبيين. (سعداوي، ص127)

كان من استعدادات صلاح الدين الداخلية: أن توفر القادة والامراء المخلصين له في كل منطقة من مناطق نفوذه ممن يعتمد عليهم في ادارة شؤون دولته وقيادة عساكره، حتى وصفه أحد مؤرخي الغرب بانه ((تبنى النظام الاسبارطي وجعله مثالاً لجيوشه)) (استانلي لين بول،1995 ص101) حرصا على تأسيس جيش قويا بقياداته. اما على المستوى الاقتصادي: فكان لموارد مصر والشام والجزيرة اثر كبير في تغذية عساكره بالمؤن والذخائر والاسلحة التي مكنته من الوقوف بوجه اعدائه، اما على المستوى الاداري: فقد قام بتوزيع حكم الاقاليم والولايات على اهل بيته واسرته مما كان له الاثر الكبير في احكام سيطرته على دولته فكان الملك الظاهر (582–613هـ/ 1186–1216م) على دمشق في حين حكم العادل (538- 615هـ/ 1143–1218م) على مصر، واسد الدين شيركوه الثاني(ت654هـ/ 1169م) بحمص وعز الدين في الرها. (ابن تغري بردي، 30/6)

وما ان اخذ يستعد الهجوم على بيت المقدس حتى أجري تغييراً ادارياً فيما بينهم فنقل العادل الى حلب وحل محله في مصر ابن اخيه المظفر تقي الدين عمر (ت587هـ/ 1191م) ومعه ولده الافضل (ابن الاثير، 213/9؛ ابن العديم، 58؛ للمزيد ينظر: شفان ظاهر دوسكي، 2004)، الا انه استدعى ابن اخيه سنة (582هـ/ 1186م)، فرفض اطاعة امره و اخيراً اقنعه ومنحه بدلاً عنها بعض الاقطاعات، مثل: حماه ومنبج ومعرة النعمان (ابن الاثير، 466/6) وكفر طاب[7].

كانت هذه التغييرات قد جرت ضمن إطار ادارة دولته وكل هذه الامور سبقت المعركة وكانت بمثابة عوامل ساعدته في تهيئة الارضية المناسبة للتفرغ لكسب المعركة سنة (583هـ/ 1187م) ((وهكذا بعد نجاحات متنوعة كانت سلطة مؤسس السلالة الايوبية تترسخ ويعترف بها من حلب الى القاهرة)). (شاندور، ص24) الى جانب العوامل العسكرية بما فيها التوقيت المناسب لخوض المعركة، واختيار موقعها والخطة العسكرية المخطط لها والتي سيتم الحديث عنها لاحقاً لكسب معركة حطين.

3-1: تهيئة الارضية المناسبة للوصول الى النتائج والاهداف المرجوة:

قبل الحديث عن الخطة العسكرية التي وضعها الناصر صلاح الدين للمعركة، كان لابد من القاء الضوء على تهيئة الاجواء المناسبة التي تم الاعداد لها لكسب المعركة ومحاولة خلق ظروف لكسب الثغرات التي كانت قد دبت في النسيج الصليبي على أثر النزاع الذي حصل بين ريموند أمير طرابلس ودي لوزجنان ملك بيت المقدس، فمن المعروف ان ريموند كان وصياً على مملكة بيت المقدس ونجح لوزجنان على استمالة البارونات لجانبه حتى توجّ ملكاً على الملك فانهى بذلك وصاية ريموند. (العريني، د.ت، ص73)

وبالرغم ان ريموند طلب من لوزجنان ان يؤدي له حساب عن اقطاعيات الملك الطفل بلدوين الخامس ايام كفالته له الا انه رفض، فغضب ريموند واستعان بصلاح الدين واستنجد به، ووافق جماعة من الصليبيين ريموند على استنجاده بصلاح الدين لشدة كراهيتهم للملك لوزجنان الذي كان في نظرهم دخيلاً عليهم. (العبري، ص207؛ باركر، ص81)

يبرز هنا ذكاء صلاح الدين ومحاولة تسيس الاحداث وفق مايرجوه من اهداف فحاول استغلال ثغرة الصراع القائمة في العمق الصليبي اذ استغل هذا النزاع الداخلي فأرسل الى ريموند قوة من قبله ليعينه ان رفض ريموند كل المساعي التي جرت للتوسط بينه وبين لوزجنان وظل الموقف بينهما على ما هو من

توتر الى ما بعد عيد القيامة سنة (583هـ/ 1187م). (العريني، ص73)

وبالرغم من ان ريموند اقام بطبرية [8]التي تعتبر من املاك زوجته، فان اعانة صلاح الدين له جاء متزامناً مع لجوء لوزجنان الى مقدم الداوية المعروف ب جيرار ليستشيره في سياسته الحربية ازاء صلاح الدين فنصحه أن يحشد قواته امام المسلمين، فهذا سيذعن ريموند ويوافق على تتويج لوزجنان ملكا على القدس، ومع كل ما حدث فان ريموند لم يحفل بهذه التهديدات. (العريني، ص73)

ولعل اهمية هذا الخلاف الصليبي في التاريخ العسكري الايوبي ان عاد بنفعه عندما استطاع صلاح الدين بفضل صداقته مع ريموند ان يبث السرايا والعيون الى بلاد مملكة بيت المقدس من ناحية طرابلس وطبرية، فتقوم باعمالها الاستكشافية، او تغير على بعض الضياع الصليبية، وتعود امنة وكان ذلك من أعظم الاسباب المؤدية لتسهيل الاستيلاء على الكثير من مدن مملكة بيت المقدس فيما بعد. (الاصفهاني، ص74؛ زكار، 2002، ص138-141)

غير ان صلاح الدين مع كل استعداداته واستغلاله للخلاف الصليبي الاّ انه لم يشاء ان ينقض الهدنة بينه وبين بيت المقدس رغم خلوه من مشاكله و استطاعته الانصراف الى الصليبيين بقوات غير قليلة الاّ ان لوزجنان وانصاره ومنهم أرناط نقضوا الهدنة لان صاحبها والمتسبب في عقدها هو ريموند الذي اضحى بنظرهم عدوا وخائنا للفكرة الصليبية التي تحتم دائماً الحرب مع المسلمين فنقضت الهدنة نقضاً صريحاً في ربيع عام (583هـ/ 1187م)، عندما استوقف أرناط قرب الكرك قافلة مصرية وهي بطريقتها الى دمشق واستولى على جميع متاعها ورجالها والقى بهم اسرى في حصن الكرك كما ذكرنا سابقاً. (ارمسترونغ، 2005، ص304-306)

ومع احترام صلاح الدين للهدن وعدم نكثها ولو على الاقل من جانبه الاّ انه كان دائم الاستعداد لمواجهة اي مواقف طارئة صادرة من الجانب الصليبي لعدم ثقته بهم ومعرفته لنواياهم واطماعهم بالأرض الإسلامية، وقد جاءت هذه الاحداث مع توقع المنجمين والعرافين بان ساعة الحرب بين الصليبيين والمسلمين اقتربت (ابن الاثير، 38/9؛ اليافعي، 1997، 321/3). والواقع ان ماجرى من مواقف كان امر واقع ولا بد من حدوثه، حتى ذهبت بعض المنجمين المسلمين الى حد القول لصلاح الدين ((تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة)) فاجابهم ((رضيت ان افتحه واعمى)) وكان ان فتحه دون ان يصيبه شيء من العمى. (الحنبلي، 1998، 463/4؛ مؤلف مجهول، 2010، ص148)

ومن الجوانب الاخرى المهمة في الخصائص الاستراتيجية للصليبيين والمسلمين قبل الدخول في النزاع الحربي بينهما، فالمعروف ان الصليبيين من البداية حتى هذا التاريخ لم يحتلوا الاجزاء الاسلامية الداخلية، بل كان كل ما قاموا به هو احتلال الاجزاء الخارجية التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج والتواصل مع اوروبا وعلى سلسلة القلاع الضخمة لضمان الحماية والدفاع ضد اي هجوم، فاستراتيجيتهم تنحصر في الحصون للحماية والدفاع، وفي البحر للتموين والامداد. (للمزيد عن معرفة استراتيجية الصليبيين والمدن الساحلية والقلاع والحصون التي تمثل عمق اراضيهم، ينظر: نظير حسان سعداوي، ص171-173)

اما الخصائص الاستراتيجية الاسلامية والذي يهمنا بهذا الموضوع، فامتازت باتساع رقعتها وطول امداداتها عبر خطوط المواصلات المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد امنة قادرة على التموين بسرعة ففي شمال حلب وحماه ومن شرق الموصل والجزيرة وكلها كانت مدن حصينة، وفي الغرب مصر وبلاد المغرب والنوبة واليمن وكلها مناطق امنة قادرة على الدعم للجيش الاسلامي. (ابي شامة، ج3، ص92؛ عاشور، 1972، ص51)

اما مركز الدولة القاهرة فقد كانت قاعدة لتدريب الجند واعداده وتموينه ومنها كانت يطلب الامداد وسد النقص واملاء ميادين القتال، وظلت دمشق مسرحاً للنشاط السياسي وساحة لحركات عسكرية مستمرة، هذه الاستراتيجية جعلت من صلاح الدين وجيشه ان يوفر القاعدة الامنة لساحة المعركة

مستقبلاً ليجعلها الدعامة التي يعتمد عليها كذخيرة له. (ابي شامة، ج3، ص123؛ محمود، 2013، ص67) حتى نعته أحد المؤرخين الغرب، بانه اصبح ((ملك ملوك الشرق جميعاً)) لقوته وعدالته وحكمته. (للمزيد عما نعت به يتابع رسالة البابا، ينظر: لين بول، ص154) بل ((سيداً على حكام العرب من الفرات الى النيل)).(المرجع السابق، ص145)

ولعل البعد الاعلامي، كان جانباً معززاً لقدرات صلاح الدين وسلاحاً معنوياً عندما أعلن حملة اعلامية الى كافة أطراف العالم الاسلامي (ابي شامة، 188/3) بقصد الاستنفار والاستعداد للجهاد والمواجهة الكبرى بحطين فطلب الجند وجاءته من كل ناحية من مصر والشام وحلب والجزيرة وديابكر... فاولها قدوماً عليها مجموع العساكر البرية من مصر بقيادة الملك العادل الذي خرج من مصر والتقى بصلاح الدين قرب الكرك وقطع ماحولها من الشجر ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك وسارا معاً للدخول الى الكرك وشدا الحصار عليها، وفي نفس الوقت خرج الاسطول المصري في خمسة عشر شينياً [9]. بقيادة الامير بدر الدين لؤلؤ (ت656هـ/ 1259م) الى الاسكندرية استعداداً للجهاد. (ابن تغري بردي، 31/6؛ ابو خليل، 2005، ص87)

اما الملك الافضل فابقاه صلاح الدين عند راس الماء قرب دمشق في انتظار تجمع العساكر التي جاءته من البلاد، فجعل على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر الامير مظفر الدين كوكبرى (ت603هـ/ 1233م) صاحب حران، وعلى عسكر البلاد الشامية بدر الدين دلدارم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي (ت596هـ/ 1199م)، من هنا يتضح ان صلاح الدين اراد ان يجمع الجموع الغفيرة من المسلمين بارجاء العالم الاسلامي لمنازلة كبرى تخضع الصليبيين لتفتح الطريق امام رغبته الجامحة لفتح بيت المقدس، وكان من توجيهات السلطان لولده الافضل في حالة لم يعد اليه سريعاً ان يتوجهوا نحو عكا، وفعلاً تم ذلك بعدما سمح ريموند صاحب طرابلس وصديق صلاح الدين على مرورهم ببلاده وضياعه بشرط ان لايتعرضوا للبلاد والقرى المارة عبرها. (الاصفهاني، ص78؛ حمادة، 1985، ص309)

مرت القوات الاسلامية وهي بسبعة الالاف فارس وتقابلت في طريقها عند صفورية بكوكبة من فرسان لوزجنان وعددهم مايقارب المائة وخمسين فارساً في (اول ربيع الاول سنة 583/ ايار سنة 1187) وحدث الصدام المفاجئ، وفيها هلك عدد غير قليل من الصليبيين ومنهم مقدم الاسبتارية في حين أفلت مقدم الداوية ووقع في الاسر جماعة من فرسانهم. (الاصفهاني، ص62؛ ابن واصل، د.ت، 187/2)

كانت هذه المعركة بحد ذاتها مقدمة جيدة ليطلع صلاح الدين على قدرات الصليبيين وما الت اليه من مقتل عدد غير قليل من الصليبيين وعلى راسهم مقدم الاسبتارية وامام هذه الكارثة التي تفاجئ به الصليبيون كان لابد من أن يتناسى امرائهم خلافاتهم ونادوا الى اجتماع قرروا بموجبه ارسال وفد الى ريموند الثالث لاسترضائه فقبل وساطتهم ونقض تحالفه مع صلاح الدين وعاد الى صفوفهم، فاجتمعت جيوشهم في صفورية استعداداً للانتقام من المسلمين بناء على نصيحة ريموند بانها ملائمة للعمليات الدفاعية، يذكر أن عدد لمحتشدين زاد على اثنين وعشرين الفا بين راجل وفارس وقيل بلغ عددهم الخمسين او الستين الفا. (العبري، ص208؛ ابن تغري بردي، 32/6)

لما وصلت اخبار النصر تحرك صلاح الدين من الكرك حتى وصل طبرية والتقى بولده الافضل وعسكرا بعشترى مع جميع الامراء والعساكر القادمة من البلاد في حين عاد الملك العادل بجيشه الى مصر. (الاصفهاني، ص52؛ ابي شامة، 176/3)

كان من عادة صلاح الدين الاجتماع بكبار هيئة اركان حربه والقادة العسكريين والرجال بمن يثق بمقدرتهم وعقليتهم والاعتماد على عامل المشورة التي هي كثيرا ماتكون عاملاً في ضمان الانتصار في معركة مصيرية كمعركة حطين، فاجتمع صلاح الدين بهيئة اركانه التي كانت تتكون من صلاح الدين رئيساً، ومن عضوية اخيه واولادهِ واولاد العموم والرفاق

القدامى والاتباع الجدد والقاضي الفاضل (ت596هـ/ 1200م) والعماد الاصفهاني وبهاء الدين بن شداد (ت631هـ/ 1234م) قاضي الجيش وكان لكل المجتمعين الحق في ابداء الراي. (العبري، ص207؛ سعداوي، ص178)

نجد ان عامل المشورة وابداء الراي والنقاش حوله للوصول الى اتفاق يضمن الوصول الى الاهداف المرجوة، هي احدى صفات القائد المقدام، مع ان عقلية صلاح الدين وارادته كانتا مسيطرين على المجلس مع اهتمامه الدائم بمشورة اخيه العادل، نائبه وساعده الايمن ان حضر مجلسه، وان لم يكن حاضراً لم يقطع امر حتى يكاتبه ليسمع رايه فيه. (ابي شامة، 24/3)

والى جانب كل هذه الترتيبات الاستراتيجية فان الناصر صلاح الدين أشرف بنفسه اشرافاً كاملاً على اعداد قواته، فعدها ورتبها ونظم صفوفها بحسب خطته، وأغدق عليهم بالاموال لكيلا ينحرف بعض ذوي النفوس الضعيفة وراء عملية النهب والسلب كما فعلوا في معركة الرملة واختار صلاح الدين بنفسه الكمائن والقناصة الذين قاموا بدورهم في هزيمة الفرنج ان ظلوا يشاغلوهم ويقتنصوهم طوال الطريق بين الحين والاخر او تخطفهم عناصر اليزك الصلاحي [10]. حتى اضعفوهم قبل المعركة وقضوا على الكثير من خيولهم وقد عم المؤرخ ريموند سميل (R.C.Smail) تنكيل الكمائن بالفرنج بين صفورية وطبرية المعركة الاولى وعدها نوع لم يعهده الفرنج قبل حطين. (محمود، ص67) وبذلك فقد صدق البير شاندور Land Shadur عندما وصف صلاح الدين بالرجل السياسي البارع حين قال: ((برز صلاح الدين رجلاً سياسياً بارعاً، وعسكرياً لا يشق له غبار، وشكل خطراً داهماً على الممالك اللاتينية)) (شاندور، ص23)

4-1: وضع خطة عسكرية محكمة لمعركة حطين:

اقر صلاح الدين خطة الهجوم وراى ان يهاجم قبل الوصول العدو الى ارض المعركة ووجد ان وصوله المبكر سيجعل من العدو منقاداً لرغبات المهاجم ويجعل خطته قيد التنفيذ. حتى وصف غيوم الصوري Ghyuwm Alsuwri ان انباء تحركات صلاح الدين بدأت تصل الى ((اراضي الفرنجة الذين انتابهم من جرائها الذعر)) لأنها كانت موضوع تخوفهم. (باركر، د.ت، ص8-81)

وهذا ما حصل عندما تجنب مهاجمة الصليبيين في صفورية وعمد الى اجبارهم للمسير نحو الداخل فهاجم طبرية. (الاصفهاني، ص50؛ ابن واصل، 87/2) في (24 ربيع الاخر 583هـ/ 3 تموز 1187م)، وكان وقتها قد هيئ خطة عسكرية محكمة مستغلاً طبيعة المنطقة الوعرة وندرة الماء وارتفاع حرارة الجو لتساعدة في تنفيذ خطته، فكانت الخطوة الاولى من الخطة عندما انسحب صلاح الدين من طبرية تاركاً قوة صغيرة محاصرة لقلعتها، ورتب جيشه الرئيسي على التلال المطلة على المدينة وامر قواته بالاستيلاء على منافذ المياه ومواراده في تلك الارض القاحلة. (الذهبي، حوادث 581-591هـ، ص20)

بدأت خطة صلاح الدين تاخذ حيز التنفيذ تدريجياً بخطوته الثانية، عندما بدأ الجند الصليبي يضعف وخارت قواه طالبين الماء الذي تعذر وجوده وامام هذا الوضع المزري، اضطر الصليبيون للصعود الى مكان مرتفع يعصمهم من الهلاك فلجاؤا الى جبل حطين. (الاصفهاني، ص 57؛ تغري بردي، 32/6)

وجاءت الخطوة الثالثة من خطته عندما حاول الصليبيون الوصول الى ينابيع المياه الموجوده بوادي الحمام حول قرية حطين على مسافة ثلاثة اميال (ابي شامة، 76/3؛ سعداوي، 32/6) من الميدان فمنعهم صلاح الدين وحاصرهم وحدث ارتباكاً في الجيش مما فصل مؤخرتهم عن بقية الجيش وحينها أمر صلاح الدين الزراقين [11]. فزرقوا هشيم الحشيش ناراً فتأججت حتى اقدام حوافر الخيل وارتفع لهيبها، واجتمع حر النار مع شدة العطش وأنهكت القوى. (سبط ابن الجوزي، 393/8/1) فحمل ريموند من ناحيته على جيوش المسلمين وكانت بقيادة تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبري فلم يكن من هذان القائدان الاّ ان فتحا المجال له فخرج هو واصحابه من دائرة الحصار ((فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصراً)) ثم مالبثت ان التمئت دائرة الحصار بقيادة كوكبري، ووجد ريموند الفرصة ففلت وهرب الى صور ومن ثم طرابلس، ففنى

الصليبيون وضعفت صفوفهم بعد خروجه وخروج عدد من القادة معه. (العبري، ص208)

وجاء وصف المعركة ((واجبر صلاح الدين الفرنجة... ليقودهم في حركة تكتيكية بارعة الى الموقع الذي اختاره بنفسه للقتال، بعيداً عن مصادر المياه، فوقعوا في الشرك، حين اطبقت عليهم القوات الاسلامية وحاصرتهم محاصرة تامة مضيقة عليم الخناق، دون ان يزج صلاح الدين بكامل جيشه، اذ احتفظ بقوات احتياطية للعملية العسكرية الشاملة وشرع في إنهاك الفرنجة المحاصرين، المرهقين ضمأ وحراً وجوعاً، والذين اندفعوا على غير هدى يتسلقون تل حطين، الذي شهد رقدتهم على نار جراح القتل، والتي كانت أبدية لا يقضة بعدها)). (شاندور، ص26)

وهكذا نجد ان نهاية معركة حطين جاءت بالانتصار لذلك ((الجندي الكردي العظيم)). (شاندور، ص158) ((وسجد صلاح الدين شاكراً وهو يبكي من شدة الفرح)) (ابن الاثير، 386/9؛ ابن واصل، 191/2) واعتبرت معركة حطين من المعارك التي تعبر عن دقة خطط صلاح الدين العسكرية ومقدرته الفذة في تهيئة الظروف المناسبة لتحقيق ما كان يصبو له.

كما وصف أحد مؤرخي الغرب عن يوم انتصار حطين ((واخيراً اطل اليوم الرابع من تموز (يوليو) 1187 اليوم الشديد الشؤم على النصرانية)) (شاندرو، ص26) لأنها كانت البداية النهاية لفتح القدس.

على اننا أردنا ان نثير مسالة خروج ريموند وتمكنه من الفرار بأرض المعركة هو دون غيره من قادة الجيش الكبار امثال لوزجنان وأرناط وغيرهم، وخاصة ان فتح الامير تقي الدين عمر وكوكبري الطريق له ثم احكم على الاخرين وخاصة ان ريموند بعد انسحابه اتخذ من احدى التلال مركزاً لمراقبة المعركة. (العبري، ص208؛ ابن واصل، 190/2)

وهذا ما اثار حفيظة مؤرخي الفرنجة والكثير من علامات الاستفهام حول موقف ريموند وهل هناك اتفاق جرى بين ريموند وصلاح الدين اذ فتح الثغرة امامه كي ينفصل عن الجيش الصليبي ويخرج من ميدان المعركة!؟(دعكور، 2011، ص176؛ ارسترونغ، ص309)

رغم كل ما قيل وما صور من توقعات وتخيلات حول خيانة ريموند لاصحابه الصليبيين في ساحة المعركة، الاّ ان هناك ادلة قد تثبت انه كانت هناك علاقة ودية بينهما اقيمت على المصالح ورد الجميل واحترام العدو لعدوه لما يلتمس فيه من شجاعة وحسن تصرف في المواقف، والذي يؤيد قولنا: ان سيد الهيكلين الاكبر والعدو الشرس لكونت طرابلس لم يتحدث عن أية خيانه على الاطلاق حينما يصف للبابا تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم، اذ كتب يقول: ((وفي صعوبة استطاع ريموند وامير صيدا، وبعض الاخرين النجاة من الكارثة الشاملة)). (شاندور، ص214)

وهنا يبرر المؤرخون المسلمون ان ريموند شعر بصعوبة الوضع فحمل حملة مركوب ففتح له تقي الدين وكوكبري الطريق ثم عاد والتام صف المسلمين وقد يكون كما يفسر للود الذي جمع ريموند وصلاح الدين ايام مسانده صلاح له ضد لوزجنان وموقفه اثناء توليه عرش المملكة، فضلاً عن موقف ريموند مع ابن صلاح الدين عندما سمح له بالعبور عبر اراضيه دون التعرض للملكته مغادراً قبل خروج الشمس للاغارة على الصليبيين عام (583هـ/ 1187م) وجاء هذا كرد فعل انتقامي على موقف أرناط عند اعتدائه على القافلة الاسلامية كما ذكرنا سابقاً. (للمزيد عن دور تقي الدين عمر في المعركة، ينظر: ابراهيم، 1994، ص103-104)

ومهما يكن فقد يحلل موقف صلاح الدين بانه اراد ان يحافظ على الود الذي بينه وبين ريموند (ابن واصل، 193/2) او يرد الجميل له فعززه بفتح الطريق له للخروج من ارض المعركة، كما ان قائداً مقداماً ذو خبرة سياسية وعسكرية كصلاح الدين لايمكن ان يضحي بعلاقته الجيدة مع أحد القادة الصليبيين لمجرد معركة، ومن يدري ربما ان فتح امام ريموند ومن معه هي من ضمن الخطة الموضوعة من اجل الوصول الى النتائج المحسومة وهي ايقاع القادة الاخرين بقبضة المسلمين بعدما اثبتوا طوال الفترة الماضية عن عدم حسن

نواياهم اثناء عقد الهدن وخرقها وحتى قبيل اشعال فتيل الحروب.

وهكذا انتهت المعركة لصالح صلاح الدين حتى وصف ارنست باركر ان الحملة الصليبية اخفقت فلا يستطيع جيش فرقته المصالح والاهواء كالجيش الصليبي وهو يحارب ضد جيش أجنبي ان يحقق انتصاراً ((على جيش موحد قائده صلاح الدين وتحركه الروح المعنوية)) (عوض، 2008، ص230 بالاعتماد على The cnusades. P.66) كما ان خطة المعركة ونتائجها ((كرس مجد صلاح الدين وعبقريته السياسية والعسكرية)) (شاندو،ص33-34) ((وكرس عجز الفرنجة المنقسمين سعياً وراء قضايا مصلحية قذرة اما الاسلام الذي كان ظله يتعاظم، وسيشمل اخرى فيما بعد)). (المرجع نفسه، ص33-34) على حد وصف المؤلف[12].

1-5: استقبال القادة الصليبيين الأسرى واكرامهم بعد انتهاء الحرب:

بعد ان نزل الصليبيون من اعلى جبل حطين رافعين ايديهم للاستسلام، وكان من بين الاسرى: الملك لوزجنان (صاحب مملكة بيت المقدس)، والملك أرناط (صاحب الكرك)، وجفري اخ الامير لوزجنان، و اوك (Huch) صاحب جبيل، ابن الهنفري Humphrey، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وجيرار مقدم الداوية، وجماعة من فرسان الداوية والاسبتارية. (ابن شداد، ص215؛ سبط ابن الجوزي، 393/8/1)

كانت حطين هزيمة للصليبيين لأنهم فقدوا قادتهم ما بين قتيل واسير، ولان جميع القلاع والمدن الصليبية خلت من وجود قوة عسكرية، فقد وصفها ابن الاثير ((من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحداً، ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احداً)) (ابن الاثير، 387/9) ومن اجتاز ميدان المعركة فقد رآها ملى بعظام القتلى (ابن العديم، ص409) واما الاسرى فلم يجدوا حبال الخيم لقيدهم جميعاً، بل يذكر العماد الاصفهاني بأن حبل واحد كان يقيد ثلاثين واربعين يقودهم فارس، او البقعة الواحدة يقف مائة او مئتين يحميهم حارس، خلاصة القول ان حطين حصدت الكثير من القتلى والاسرى. (ابن شداد، ص64؛ شبارو، ص150)

استقبل صلاح الدين في دهيلز سرادقة (خيمته) كبار الاسرى من الملوك، فحضر لوزجنان وأرناط واحسن استقبالهم بتقديم الماء المثلج لإرواء عطشهم (ابن الاثير، 387/9؛ الاصفهاني، ص59) فشرب لوزجنان وكان بجانب صلاح الدين، وناول ما بقي منه لأرناط فشرب منه، فغضب صلاح الدين من لوزجنان، قائلا له: ((لم اذن لك في سقية الماء حتى لا يوجب ذلك اماناً له))[13].

ثم التفت الملك الناصر الى أرناط واخذ يوبخه على حنثه بقسمه وخرقه المواثيق والعهود وسوء تصرفاته، فأجاب أرناط ((لقد جرت بذلك عادة الملوك،)) ثم ذكره صلاح الدين بسوء افعاله وسخريته من بني الاسلام، وقال له: ((يا ترى لو ركبت انا راسي وسلكت ثم وقعت اسيراً في قبضتك فاي المواقف يكون موقفك مني؟)) فأجاب أرناط بوقاحة: ((اقطع راسك دون تردد)) فانتفض السلطان غاضباً وصاح بوجهه: ((يا لك من وقح... ثم استل الخنجر من وسطه وطعنه...)) وضرب رقبته بيده فقتله وفاءً لنذر سابق نذره على نفسه. (ابن الاثير، 387/9؛ الاصفهاني، ص62)

ان المتتبع لهذا الحوار ان أرناط تجاوز حدود الادب في مجالس الملوك بل تفوه بكلمات يعبر عن مدى جرئته وعدم احترامه، ولعل ما فعله صلاح الدين قد يخرج من دائرة العتب عليه في قتل اسير، لان أرناط هو من تجاوز حدوده بسلاطة لسانه وهو مازاد الامر سوءاً، والاّ فان صلاح الدين الذي ضرب أرناط هو نفسه من هدأ من روع لوزجنان الذي ارتعت فرائضه بقتل أرناط وظن ان دوره قادم. (ابن العديم، ص410)

فقال صلاح الدين للوزجنان: ((لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك، واما هذا فانه تجاوز حده، فجرى ما جرى.))(سعداوي، ص184) هنا يظهر من كلامه ان صلاح الدين لم يكن ينوي قتل الاسرى الملوك ولم يكن من شيمه، وما جرى لم تكن الاّ حالة فردية وخاصة جاء وفاءً لقسم اقسمه على نفسه وجره أرناط بقوله على ((فعل القتل)) والاّ

فان صلاح الدين كان لا يميل الى سفك الدماء والانتقام من الاسرى الصليبيين، وخاصة الملوك والامراء بدافع الاستفادة منهم في اجراء عملية التبادل مع الاسرى المسلمين، او مقابل مساومات سياسية في المستقبل. (ابن شداد، ص215)

أرسل صلاح الدين لوزجنان واخوه هنفري وصاحب جبيل وجميع اكابر الاسرى ووضعت القيود في ارجلهم وايدهم (ابن شداد، ص216؛ سبط ابن الجوزي، 1394/8/1؛ العيني، 62/2) وسيقوا الى سجون دمشق حيث تولى امر الاحتياط عليهم الامير صفي الدين ابن القابض والي القلعة، في حين مات الكونت ريموند بعد وصوله لطرابلس بأسبوعين (العيني، 62/2) وأبقى أسقف الناصرة مع مرضاهم كي يتولى العناية بهم حسب ماجرى عادتهم. (ابن واصل، 192/2)

وبعد عودة صلاح الدين لطبرية استولى على قلعتها من غير عناء فطلبت الاميرة اشيفا زوجة ريموند الامان لها ولاولادها ومن معها ومالها، فاجابها صلاح الدين الى ذلك كله وارسلها الى زوجها ريموند بطرابلس قبل وفاته بأيام. (المصدر السابق، 196/2؛ سالم، 2005، ص120)

ان استقبال صلاح الدين لاسرى حطين، نجد انه أكرم كبار الملوك والامراء وسيقوا الى دمشق كاسرى دون التعرض لهم او اهانتهم او التقليل من شانهم، باستثناء أرناط الذي تجاوز حدوده فانتهى بقتله وفاءاً للنذر الذي قطعه صلاح الدين على نفسه.

كما أطلق صراح جيراد رئيس الداوية وفق طلب لوزجنان والشفاعة له عند صلاح الدين، يبرز ان السلطان صلاح الدين كان يجيب طلب الاسرى من الملوك وهذا قلما يتصف بها قائد الاّ من كان له شهامة ومروءة.

وهكذا نجد من مؤرخي الغرب والشرق ممن اشادوا بدور صلاح الدين واهمية معركة حطين، ((صلاح الدين الذي كان اعداؤه أنفسهم يعترفون له بعظمة النفس)). (زكار، 1995، 1317/3) فأشار ابن خلكان: ((مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة، كثير التواضع واللطف، ريباً مع الناس، رحيما القلب، كثير الاحتمال والمدارات)). (207/7)

فقد توج نصر السلطان صلاح الدين في حطين مسيرته، ووضع في مصافي كبار القادة والحكام المسلمين فقد بواه الغرب مكانه عليا بين اعدائه دون الاستهانة ببطولته (زكار، 9980/21) حتى وصف ابن واصل هذه المعركة: ((كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الاسلامية وبها تسير فتح القدس)) ومن بعدها سائر المدن والقلاع الصليبية واخذت تسقط الواحدة تلو الاخرى. (ابن واصل، 225/2)

وجاءت وجهة نظر القادة اللاتين في المملكة حيال صلاح الدين بقولهم: ((لقد كان هناك اجماع على انه يجب بذل كل جهد ممكن لمعارضة ومقاومة هذا الرجل العظيم وهو يتقديم بسرعة من نصر الى اخر في سبيل الوصول الى اعلى قمة لارضاء طموحه، والشعور السائد في المنطقة انه كلما ازداد صلاح الدين قوة ازداد عداء لنا)).(محمود، ص65)

وجاء رينسمان ليصف الوضع بالقدس: ((كان المنتصرون معقولين وانسانين فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً في دماء ضحاياهم لا نجد في هذه المره اي بناء نهب، ولا اي انسان اصابه اذى، وتنفيذاً لاوامر صلاح الدين انبث الحراس يحفرون الطرق ويحمون الابواب، ويمنعون ارتكاب اي اعتداء قد يصيب المسيحيين)). (سالم، ص122)

وهذا ما سنتحدث عنه، عن فتح القدس ونتائج فتحها، وشهامة ومروءة صلاح الدين مع اهلها من المسيحيين والمدافعين عنها من الصليبيين والفرنج.

2: فتح بيت المقدس والقيم الحضارية اثناء وبعد الفتح:

2-1: مشاركة القائد صلاح الدين لجنوده في دك اسوار القدس وفتحها:

استدعى صلاح الدين القوات المصرية اثناء استيلائه على مدن الساحل والقلاع الجنوبية واجتمع بولده الملك العزيز عثمان في عسقلان، وتحرك الحاجب لؤلؤ باسطوله يجوب البحر لقطع الطريق امام السفن الصليبية (ابي شامة،

الروضتين، 177/3) واخذ صلاح الدين بعدما علم بتحصين القدس من قبل الصليبيين، فاحضر اداوت الحصار الكافية لاقتحام اسوارها ذات الابراج العالية .(المصدر السابق، 177/3)

ويذكر ان صلاح الدين استقبل في الخفاء وفداً من موظفي القدس كان قد استدعاهم لمناقشة شروط استلام المدينة المقدسة ولم تكن هناك مناقشة اذ رفض الوفد تسليم المدينة، مع العلم وعد بكثير من اللباقة بعدم ارهاق مدينة القدس بالضرائب مثل كثير من المدن الاخرى التي فتحها، ووعد بالاكتفاء بمبلغ رمزي مقداره ثلاثون ألف قطعة ذهبية، وعدم المساس بحقوق المسحيين الذين يختارون البقاء في القدس بعد استرجاع المسلمين اياها. (رانسمان، ص521؛ الصلابي، 1994، ص534)

لكن البارونات وقادة المنظمات لم يقبلوا المهاوده اذ كانوا يريدون اطاله أمد المفاوضات والاحتيال على صلاح الدين املاً بوصول اسطول جنوة الى الشواطئ الشامية حاملين قاذفات الحجارة وفرسان الصليبيين من الشجعان، غير ان صلاح الدين برفضهم لما اقترحه عليهم أقسم ان ياخذها بالسيف لما اظهروه من استعلاء وكبرياء ورفض النقاش معهم .(شاندور، ص229)

بدا صلاح الدين قتاله الفعلي مع جيشه ضد العدو المتحصن داخل اسوار المدينة في صباح (21 رجب عام 583هـ/ 26 ايلول عام 1187م)، فتقدم بجيشه نحو الاسوار بغطاء كثيف من المدفعية (المجانيق) وكان اثنا عشر منجنيقاً كبيراً ترمي الحجارة الكبيرة، وتقدم صلاح الدين موجهاً لجنده ومشرفاً عليهم بخطة الحصار تحت هذا الغطاء، والنقابون ينقبون في السور، ودار قتالاً عنيفاً بين الطرفين، حامية المدينة توقف تقدمهم بسهامها ونبالها ومجانيقها من على الاسوار وهي تقاتل بعنف وضراوه، بينما فرسانهم يخرجون الى ظاهر البلدان للمقاتلة والمبارزة.(ابن الوردي، 95/2؛ العيني، 74/2-75)

ان مشاركة القائد لجنوده في المعركة واشرافه المباشر عليهم وتوجيههم حتما له أثره في رفع معنويات الجيش وان قائداً كصلاح الدين ببسالته واقدامه واصدراه على فتح القدس، حتما سيمنح الثقة للمقاتليين بحكم خبرته الجلية في معاركه السابقة مع الصليبيين وتحقيق الانتصارات بفضل شجاعته وعزمه ودقة تقيمه لظروف المعارك وربما ستكون عامل اصرار وعزم لجنوده للاستمرار حتى النهاية وبذل قصارى جهودهم لفتح القدس. (ابن خلدون، 1978، ص258)

مع العلم ان باليان دي ابلين (ت588هـ/ 1193م) المعروف بابن بارزان في المصادر العربية، بذل جهداً كبيراً ليؤجج في رجاله روح الشجاعة التي كانوا بحاجة اليها، بل منح لقب (الفارس) لعدد من البرجوازيين من سكان المدينة والتجار الذين كانوا عليهم ان يدافعوا عن اسواقهم ودينهم حتى النصر او الهلاك في المعركة، بل عمد باليان الى صهر ((الواح الفضة التي كانت تغطي كنيسة القبر المقدس لدفع مرتبات الجنود واستطاع حاكم القدس ان يجعل من مدينة داؤد القديمة قلعة حصينة منيعة)) وذهل المسلمون برؤية تحصيناتها والعدد الكبير للجند والفرسان وهم منهمكين فوق الاسوار التي كانت تهدمها شيئا فشيئاً حجارة الالات الخشبية للمسلمين.(شاندور، ص320)

ورغم عدم قدرة صلاح الدين لاقتحام المدينة من عبر باب دمشق الاّ ان تفوق المدفعية بات سقوط المدينة امر حتمياً وخاصة ان النقابين العاملين تحت وابل المجانيق استطاعوا من احداث ثغرة في جدار السور .(للمزيد عن بيت المقدس وبنيانها وفصائلها وفضل زيارتها، ينظر: النويري، 2004، 310-301/10)

كان صلاح الدين قد اوصى مقاتليه عند وصول المسلمين للسور عليهم اجتياز الخندق الخارجي المحفور حول السور وفعلا اجتازوه وعملوا ثقباً وتهديماً واشتد قصف المجانيق وتوالت السهام والنبال من الرماة المتقدمين، حتى نجح المهاجمون في فتح ثغرات عديدة في السور، ولما احدث المسلمون ثغرة كبيرة في السور استطاعوا النفاذ عبرها ورفع راياتهم عليها وبالرغم من ان المدافعين احتشدوا لرد المسلمين عن السور الاّ انهم ايقنوا ان لا جدوى من دفاعهم وخاصة ان

المسلمون اجتمعوا بكثافة وتوالوا في هجومهم فادركوا انهم مشرفون على الهلاك باستمرارهم هذا.

كان اصرار صلاح الدين وعزمه على دك الاسوار بالمجانيق ورمي السهام والنبال من الرماة لردع المدافعين عن السور هو الحل الامثل للوصول الى اسوارها ومن ثم النفاذ عبر الثغور التي احدثت بجسم السور وان نجاح عملية الهجوم هذه تعود الى الاصرار والقوة في الهجوم من قبل القائد وجنوده حتى تحقيق النصر .(المصدر السابق، ص274)

وقد وصفه المؤرخ الامريكي جون لامونت john mont في بحثه الشهير –الحرب الصليبية والجهاد– crusade and jihad، فضلاً عن المؤرخ الغربي كنج king ((ان انتصارات ذلك القائد المسلم يعود الى توافر خبرة عسكرية ودارية)). (عوض، ص232 بالاعتماد على: Ehreen Kreuis, saladin, p.238)

ولعل الحديث على الاصرار والحماسة في فتح القدس يجعلنا ان نستذكر ما ذكره غروسية واصفا المعركة التي دارت عند اسوار المدينة بانها كانت من القوة والعنف مالم تشهدها اي معركة لقد كانت عطشاً حقيقياً للشهادة من كلا الجانبين اذ كلا الطرفين ينظر الى القتال كفعل ديني والتزام عقائدي .(سويد، 1997، ص100) ومن هنا نجد ان مشاركة صلاح الدين لجنوده ياتي من جانب اخر كمسؤولية دينية كمؤمن مسلم يؤمن بالجهاد على انه ((فرض عين واجب عليه تحقيقه)) في سبيل فتح القدس لنيل ثواب الجهاد في سبيل الله او نيل الشهادة وبذل النفس في سبيله .(مؤلف مجهول، ص148)

2-2: التفاوض ومنح صلاح الدين الامان لاهل القدس بالتشاور مع امرائه:

شارفت المعركة على الانتهاء لصالح المسلمون وأيقن المدافعون الصليبيون ان لا جدوى من الاستمرار والدفاع عن المدينة لأنهم هالكون فاستسلموا بعدما دك المسلمون الاسوار ونفذوا عبرها الى المدينة .(ابن واصل، 213/2؛ علي، د.ت، ص56)

((فهرع الشعب للركوع امام الهياكل وقامت الراهبات بطواف حول الاسفار وهن حافيات منشدات المزامير وشرعت النسوة تخلطن الممارسات الخرافية لاعمال التقوى وذلك لتغطيس نباتهن حتى الاعناق في اوان مملؤة بالماء البارد اما قبر المقدس، وقصصن شعورهن معتقدات انهن بصنيعهن هذا يهدئن غضب الرب)) وكان الخطباء يذكرون مستمعيهم بما سيحدث لهم إذا سقطت القدس في ايدي المسلمين .(شاندور، ص231)

استشعر الصليبيون بخيبة الامل فقد وجدوا تزاحم الناس في الكنائس للصلاة والاعتراف بذنوبهم حتى قطعت الناس شعورهم على امل دفاع الرجال عنهم خشية الوقوع كسبايا بأيدي المسلمين .(الغامدي، 1985، ص213) فاجتمع مقدموهم يتشاورن لطلب الامان وتسليم القدس، ((اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما ياتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الامان، وتسليم البيت المقدس الى صلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان)) .(ابن الاثير، ص334)

فلما طلبوا الامان امتنع السلطان عن اجابتهم، (ابن الاثير، 334/9؛ ابن واصل، 213/2) غير ان الصليبيين اجتمعوا مرة اخرى داخل بيت المقدس، وحاولوا القيام بهجمات ضد المسلمين، الاّ ان البطرياك هرقل اعترض على ذلك موضحاً ان مايفعلوه قد يسوقهم الى التهلكة لانهم سيسوقون نسائهم واطفالهم الى العبودية وحرضهم على طلب الامان من صلاح الدين، وقد وصف احد المؤرخين والاوروبيين موقف هيرقل المخزومي، قائلاً:((لكن البطريك هيرا كيلوس لم يفكر في ان يصبح شهيداً وقال لهم انهم ان يفعلوا ذلك، فسوف يتركون نساءهم واطفالهم للرق المحتم، ولكن يمنع بركته لمثل هذا التصرف العاري من الورع، وآزره باليان الذي ارتاى الحماقة في خسارة المزيد من الارواح))(رانسمان، ص522)

فأرسل باليان الى صلاح الدين طالباً الامان لنفسه والتفاوض معه فاجاب الى ذلك وحضر عنده ورغب في

الامان ((وسال فيه، فلم يجربه الى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه)) [14].

هنا يتضح ان السلطان بالرغم من رفضه في بادئ الامر لمنح الأمان، الاّ انه فتح باب المفاضات مع الصليبيين واجاب الى طلب باليان واستعداده لمقاتليه وهذا بحد ذاته يظهر مرونة السلطان صلاح الدين وعدم الهجوم المباغت لهم لاستباحة المدينة للرد عليهم، وعلى الرغم من ان باليان طلب الامان لنفسه فرفض السلطان، مع العلم سبق روفض منح الامان لهم ايضاً لعدم قناعته التامة بذلك.

وهنا نجد طبيعة اللقاء والمجلس القائم بين صلاح الدين وباليان ومن الملاحظ ان كان يتخلله نوع من الاحترام وكيف ان السلطان منحه حرية الحديث والتعبير... ((ثم ان الباب ابن بارزان سير طلب من السلطان أمانا لنفسه، وطلب الحضور بين يدي السلطان، فانعم له بذلك، واحضره واكرمه، واجلسه بي يديه فلما راى الملعون اكرام السلطان له، طمعته نفسه في طلب الامان لاهل الحصن، فصعب على السلطان ذلك، وقال: ((مابقى امان لا لك ولا لهم –ونهره– ولا عدت افعل بكم جميعاً الاّ كما فعلتموه باهله عند فتحكم له)) فقال الباب: ((حفظ الله السلطان، عندي جواب ان امنتني من العطب ذكرته بي يديك)) فقال ((قل آنت آمن)).(الاصفهاني، الفتح، 83؛ ابن الاثير، 396/9؛ ابن واصل، 213/2)

ان هذا الاستقبال وحسن اكرامه لباليان ثم منحه الامان ليقول ماعنده وان كان سلباً يثبت استعداده وحسن استماعه لعدوه، فقال له باليان: ((ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق الكثير لا يعلم الاّ الله تعالى، وانما يفترون عن القتال رجاء الامان، ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فاذا راينا ان الموت لابد منه، فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولادرهماً ولاتسبون وتاسرون رجلاً ولا امرة، واذا فرغنا من ذلك اخرجنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من اسارى السلمين، وهم خمسة الاف اسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد يحي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله، ونموت اعزاء أو نظفر كراماً.(الداوادري، 85/7)

لم يتخذ السلطان صلاح الدين قراراً لوحده وانما اراد ان يجعلها شورى بين افراد دولته ويستمع الى رأيهم ((فامر السلطان صلاح الدين بخيمة فضرب له، ونزل فيها، ثم طلب اكابر دولته، واستشارهم فيما قال له باليان)) .(ابن الاثير، 396/9؛ ابي شامة، 214/3؛ ابن واصل، 214/2؛ الدواداري، 85/7؛ الذهبي، حوادث581_590هـ، ص25) ورد نص قول ابن باليان للسلطان كلها بصيغة واحدة مع اختلاف طفيف جداً فاثرنا الاعتماد على ذكر رواية ابن الاثير مع الاشارة الى جميع المصادر المذكورة لاهمية النص) فاجمع الامراء والقادة ان يعطيهم السلطان الامان، فهو أفضل مما ذكره ((بل الراى ان يعطيهم السلطان الامان، فهو خير مما ذكروه)) فمنح السلطان الامان لاهل المدينة وتسلم بيت المقدس .(الدواداري، 86/7)

وهنا تبين ان الحوار والمشاورات التي دارت بين السلطان وامراء وقادة دولته حول موقف باليان وما اخبرهم حول دفاعهم عن انفسهم وانهم سيضحون بالغالي والنفيس ويقتلون من جانبهم ومن يسكن المدينة حتى يسلموا القدس بعد قتل وحرق وتدمير للمدينة وسيهلك من الجانبين وستصل الامور الى ما لا تحمل عقباه فوجدوا ان المصلحة العامة ومن اجل حماية المدنين من اهل المدينة وعدم سفك دماء المسلمين فوجودا من الافضل منح الامان (المصدر السابق، 86/7؛ المقريزي، 210/1) وعدم اهلاك الجانبين في معركة لاهوادة فيها ((فاستشار السلطان اصحابه، فاجمعوا على اجابتهم الى الامان، وان لايخرجوا ويحملوا على ما لا ندري عاقبة الامر فيه، وعن اي شي ينجلي الامر.(الذهبي، حوادث581-590هـ، ص25؛ المطوي، د.ت، ص86)

بل ان صلاح الدين نفسه لم يكن قاسياً وان تجاوبه مع امرائه جاءت لتناسب تتطلعاته ونواياه ((ولانه لم يكن قاسيا – بطبعه–ولكي يجنب القدس ماسى الحرب –وهذا ما يتساوى

ورغبته الخفية)) (ابن واصل، 214/2) على ان صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن مالوف عادة تلك العصور وما عد عمله شيئاً فردياً، اذ يكون قد كال لهم بالكيل الذي كالوا به لامته بيد ان السماحة التي بدت منه اكسبته وقومه في الغرب اسماً وعطراً لايزال يردد بالخير على مرور الايام .(علي، 57/2)

ولعل اصرار صلاح الدين في بداية الامر على عدم منح الامان كانت كعادة الملوك والقادة عدم التساهل في بداية الامر للعدو وارغامه على طاعته وفق شروطه والاّ فان تقبل صلاح الدين في استقبال الوفد الصليبي للمرة الاولى وباليان في المرة الثانية واستقباله وحسن استماعه له يثبت ان صلاح الدين فتح باب المفاوضات واخذ وقتاً كافياً حتى منح الامان لهم بمشاورة وتاييد من امراء دولته وقادته المشاركين له في فتح القدس وهنا يبرز ان قراره العسكري والسياسي كان صائباً والفضل يعود الى المستشارين الذين احاطوه بالراي السديد والنصيحة الصائبة وكانوا خير اعوان له في معركته ضد الصليبيين بالاضافة الى عدم انفراده بالراي.

3-2: شروط صلاح الدين في تحديد الفدية واوجه التسامح في دفعها:

تسلم صلاح الدين مدينة القدس ولم يرق دماء صليبية في تلك المدينة بحسب وصف المؤرخين الغرب، وبالتالي كشف عن عمق حضارة الاسلام ورقي اخلاق صلاح الدين وكشف البون الشاسع بين تحضره وقساوة الصليبيين عندما اقتحموها عام (492هـ/ 1099م) ومن هذا الموقف جعل القائد المسلم يحتل مكانة سامية في قلوب اعدائه في عصر اتسم بسفك الدماء .(عوض، ص168؛ العريني، 765/1)

وافق صلاح الدين على مغادرة الصليبيين للمدينة بشروط كانها سقطت بالقتال، وفي هذه الحالة يعتبر سكان المدينة أسرى حرب بدلاً من فتحها بحد السيف وأعتبر أحد وجوه البر معهم .(الاصفهاني، ص426)

وكانت من تلك الشروط المتفق عليها باليان، مغادرة الصليبيين. مقابل فداء او (دية) يدفعونها: فكانت على الرجل عشر دنانير صورية [15] مفروضة على الغني والفقير بشكل متساوي، وعلى المراة خمسة دنانير (ابن الاثير، 335/2؛ ابن العديم، ص411؛ العبري، ص211) واختلف المؤرخون في نسبة فداء الصبي (الطفل)، فقيل ان صلاح الدين جعل على الصبي اربعة دنانير، في حين ذكر البعض ان فدية الصبي كانت دينار واحداً .(ابن شداد، ص82؛ ابي شامة، 213/3؛ مؤلف مجهول، ص149) وراى البعض الاخر أن فديته ديناران .(البنداري، ص311؛ ابن العديم، ص411؛ ابن واصل، 214/2)

اما الفقراء والمعدومون ،فقد وافق صلاح الدين إطلاق سراحهم مقابل ان يدفع باليان عنهم مبلغاً اجمالياً قدره ثلاثون الف دينار، مع ان صلاح الدين اعرب عن استعداده ليدفع باليان مائة الف دينار عن الفقراء كلهم وعددهم عشرون الف شخص الاّ ان باليان لم يكن بمقدوره الاّ تحرير سبعة الاف منهم نظير مبلغ ثلاثين الف دينار .(رانسمان، ص235؛ بالاعتماد على ما اورده اميريول كأكثر الروايات اكتمالاً واصالة لأنه كان مع باليان في القدس. Emoul, pp. 174-5, 211)

حدد صلاح الدين لخروجهم جميعاً وهي اربعين يوماً، فمن ادى فديته خلالها أطلق صراحه، ومن بقي بعدها وتاخر عن الخروج وفق المدة المحدودة صار مملوكا .(الاصفهاني، ص84؛ البنداري، ص311) وذلك لاجبارهم على عدم المماطلة والتاخر عن خروجهم على مايبدو.

ويذكر ان الصليبيون شرعوا في اخلاء البيوت وبيع منها من اثاث، وأقوات بارخص الاثمان ((وكان خروجهم شبيها بالمجان لاسيما ما تعذر نقله وصعب حمله)).(الاصفهاني، 1959، 60/1؛ الصلابي، ص537)

وفّى صلاح الدين بوعده فسمح لمن دفع الفدية بالخروج وكان قد رتب على كل باب من ابواب مدينة القدس اميراً من امراء الجيش لكي يتسلم الفدية من الخارجين عنها ويحتسبها (ابن الاثير، 397/2؛ البنداري، ص312؛ ابن العديم، ص411)؛ ويذكر الاصفهاني ((ولو حفظ هذا المال حق حفظه، لفار منه بيت المال باوفر حظظه لكنما تم التفريط

وعم التخليط...)) (ص85/84) وكان في المدينة ستون ألف راجل ما بين فارس وراجل عدى من تبعهم من النساء والاطفال .(ابن شداد، ص81؛ المقريزي، 96/1)

وقد تمسك صلاح الدين بعهده على ان يدفع كل خارج عن المدينة ما مقرر عليه من الفدية المحددة دون زيادة او نقصان، مع العلم خرج منهم ما كان يحمل اموال وكنوز لا يحصى، مثل البطريال الكبير للفرنج هرقل[16]. فخرج بما معه من الاموال المستحصلة من قبة الصخرة والمسجد الاقصى وكنيسة القيامة ولم يأخذ منه الاّ عشرة دنانير .(ابن الاثير، 398/9)

((وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج، ومعه من اموال البيع – منها الصخرة والاقصى والقمامة–ما لا يعلمه الاّ الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له السلطان، فقيل له: ((خذ ما معه لتقوى المسلمين)) فقال: ((لا اغدر به))، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وطرابلس .(ابن واصل، مفرج، 216/2) بثلاث مجموعات: مجموعة قادها الداوية، واخرى قادها الاسبتارية، والمجموعة الثالثة قادها باليان للحفاظ عليهم من اعتداءات البدو المنتشرين بين طريق القدس وصور وطرابلس .(نوري، 1976، ص309 بالاعتماد على Besant, Jerusalem. P. 400)

نجد ان تقرير فدية زهيدة كهذه على الصليبيين للخروج من القدس، دلالة على ان السلطان لم يكن يستغل وضعهم واملهم بالخروج بسلامة من القدس مقابل دفعهم لفدية باهضه المقدار، بل حتى انه ساوى بين الغني والفقير على الرجل منهم بفدية مقررة بنسبة واحدة ((ان يزن كل رجل عشرة دنانير، يستوي فيها الغني والفقير)) (ابن الاثير، 397/9؛ ابن واصل، مفرج، 214/2) دون استغلال الاغنياء منهم بغض النظر عن مستوى ثرائهم الاقتصادي ليكون شرطاً سارى المفعول به دون استثناء.

ولعل خروج بطرياك القدس بما معه من اموال كبيرة مستحصلة خير دليل على التزام صلاح الدين بوعوده مقابل عشرة دنانير لاغير(المصدر السابق، 215/2)، فعندما خرج هيراقيلوس في المقدمة يتبعه الاكليروس الزمني والروحي وهو يحمل الانية المقدسة والمصوغات الذهبية والاقمشة وكنز القبر المقدس، وقد لفت المؤرخ العماد الاصفهاني نظر السلطان الى ان هذه الثروات كانت يجب اعتبارها من الاموال الغير المنقولة وبالتالي تبقى مكانها بحكم المعاهدة لانها بهذه الصفة من حق المنتصر، ومع اقتناع صلاح الدين بوجهه نظر العماد الاّ انه فضل عدم المنازعة بملكية اموال القبر المقدس ((وتركها ترمز، لان الطهر الاكبر يكمن في عقيدة المؤمنين الحقيقيين اكثر مما يكمن في ذهب الانية المقدسة)) .(الاصفهاني، 60/1؛ شاندور، ص234)

وبالرغم من تلك الفدية البسيطة، فان الكثير منهم لم يستطيع دفعها فداءً لنفسه، وبعد مضي اربعين يوماً اصبح من منهم اسيراً في ايدي المسلمين ولن يسهم احد من الاغنياء الصليبيين في فداء فقرائهم فنجد ان البطرياك هرقل خرج بخزائنه الضخمة[17] دون ان يجعل لهؤلاء الفقراء اعتباراً .(الغامدي، ص215) وقد يكون السبب انعدام الروابط الاجتماعية وغيرها بين الصليبيين في ذلك الوقت، فالمقيمون بالقدس كانوا من خليطا من اجناس وشعوب اوروبية متباينة، واجنادهم غرباء مأجورين رغبوا في السفر الى الشرق مخرطين بصفوف الجيش للتخلص من رق السائد وقتذاك في المجتمع الاوروبي .(الصلابي، ص539)

ولعل ما عبر عنه الكاتب الانجليزي لين بول على ابداء اعجابه بصلاح الدين متهجماً على البطريك: ((انها كانت فرصة للملك المسلم ان يعلم المسيحيين معنى التسامح)) .(الغامدي، ص239) والخلاصة ان الموقف المخزي من كبار الصليبيين يقابله صلاح الدين من شهامة وتسامح امام الالاف المدنيين الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة كاسرى في يد صلاح الدين، هنا تجلت انسانيته وعبقريته فقد كان يستهدف تحرير الارض لا سفك الدماء وكسب الاموال .(زكار، 1995، 1319/3)

كما ان التسامح الذي اظهر السلطان صلاح الدين خاصة عندما دخل بيت المقدس فاتحاً في (582هـ/ 1187م) وإطلاق سراح اعداد كبيرة من الصليبيين في عصر التعصب الصليبي كان عاملاً مؤثراً في صنع مثل تلك الاسطورة [18] ويقر المؤرخ الروسي ميخائيل زابوروف Mik Zabarowf ((ان تلك المعاملة الرحيمة عامل بها كافة عناصر المسيحية كان سبباً في دخوله عالم الاساطير [19] التي تمجد شهامته الغير معتادة)). (جزيل وجاسم ناصر، 1998، ص13-14، 27)

اتجه كارول هلينبراند Carowl Hilenbrand الى التساؤل عن السبب في ان صلاح الدين الايوبي نسجت بشأنه اسطورة وهو مالم يحدث بالنسبة لعماد الدين زنكي وابنه من بعده نور الدين محمود، وقد أُستبعد الاول بسبب كونه رجلاً بالغ القسوة على حد قوله، اما نور الدين فانه كان سلفاً صالحاً لصلاح الدين، غير ان صلاح الدين كان الذي يميزه ان كان له اصدقاء من الصليبيين، وتمتع بكاريزما خاصة مما يجعله محل احترام الصليبيين ومنهم رتشارد قلب الاسد. (عوض، ص292)

اما موريس بيشوب mores Beshwb فيحاول الاقتراب من القضية ويذكر ان الشعوب التي تكون في حالة حرب عادة ما يكون لها خصم نبيل فـ((بالنسبة للصليبيين فقد كان صلاح الدين هو العدو النبيل)). (علي ، ص113)

وياتي وليم الصوري Walam AL-Sowre ذلك المؤرخ المتأرجح ما بين مديح النادر لصلاح الدين وبين الهجوم عليه ليصفه بعبارات نادرة في عصر الحروب الصليبية، بانه فارس شجاع كريم الى درجة السخاء، ويملك روح المبادرة، وقد وصفه بانه رجل رائع، وصاحب نشاط لا يعرف الكلل وانه قام بدور قائد قوي في كل شيء. (1990، ج2، ص981، 1057)

اما ارنول Emoul المعاصرة له، فقد امتدح صلاح الدين نظراً لتسامحه عندما دخل بيت المقدس فاتحاً، بل ان الامر تعدى ليشمل المؤرخين البيزنطيين انفسهم فنجد المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس Nicetas Choniates وقد اشار بموقف السلطان صلاح الدين وقارن بين ما فعله من تسامح نبيل عما اقدم عليه الصليبيون خلال احداث غزو القسطنطينية سنة (600هـ/ 1204م) وهذا لا يخلو من دلالة بسلوكه المتحضر بعمقها التاريخي مقارنة مع افعال الصليبيين المتبربرة ولذلك صار صلاح الدين رمزاً للتسامح والتحضر حتى خارج النطاق الجغرافي التقليدي للصراع في صورة بلاد الشام ذاتها. (عوض، ص301)

وبالفعل اشار مؤرخي الغرب انه لم يقتل مسيحي واحد ولم يجر اي سلب او نهب في المدينة وكانت مبالغ الفديات منخفضة عن قصد انما بقي هناك الاف الفقراء ممن لايقدرون على تامينها واخذهم المسلمون بالتالي كاسرى، حتى هبط سعر الاسير الواحد الى ثلاثة دنانير بل فكر أحد المسلمين في صفقة رابحة بان يستبدل سجينا بزوج صندل .(رانسمان، ص518) وكان عددهم غفيراً جداً حتى قيل ان العبد الفرنجي كان يباع لقاء نعلٍ في دمشق، لكن الكثيرين نجوا من هذا المصير جراء تأثر صلاح الدين الى حد التدمع بمحنة هذه العائلات التي تفرق شملها، وأفرج عن العديد منهم بلا مقابل)) .(آرمسترونغ، ص319)

على ان هذا الموقف الفردي الذي صدر عن أحد التجار المسلمين في استبدال السجناء كتجارة رابحة لا يمكن ان تحسب على صلاح الدين ومواقفه الانسانية فقد شكل مجموعات من الحرس في المدينة لمنع اي عنف او تجاوزات وكان يرمي من صنيعة هذا الى الحيلولة دون قيام البعض باي عمل اجرامي او انتقامي. (شاندور، ص234)

فنجد الملك العادل يرسل الى اخيه صلاح الدين طالباً منه ان يهب له الفا من اولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله، فاجابه صلاح الدين لذلك (الغامدي، صلاح الدين، ص239 ان ذلك الفعل الانساني الذي قام به الملك العادل قد حرك مشاعر البطرياك وباليان فتقدما الى صلاح الدين وطالبا منه مثل ذلك فاعطاهما صلاح الدين ما طلباه واطلق سراحهم (المرجع السابق، ص240) بل اعلن صلاح الدين صراحة انه سيعتق كل رجل مسن وامرة عجوز

.(رانسمان، ص24؛ بالاعتماد على: Emoul, pp. 174-5, 211)

التمس صلاح الدين واقع الاسر الصليبية الغير قادرة على دفع الفدية وسواء عن سوء حالة وفقرهم او اي سبب اخر، فامر حراسه بالمناداة في شوارع بيت المقدس بانه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع فديته من الصليبيين لكبر سنه وان عليهم ان يتقدموا نحو الباب الخلفي للمدينة ليسمح لهم بالخروج مع طلوع الشمس حتى الليل، وما ان صدر ذلك الاعلان حتى توافدت اعداد لا تحصى من الصليبيين. (المرجع السابق، ص524)

غير ان الظروف الجارية ادت الى حدوث تجاوزت في مدينة القدس الاّ ان صلاح الدين حاول تدارك الموقف ودعا الى تامين الاسرى والحفاظ على سلامتهم والتامين على حياتهم ((غير ان صلاح الدين كان ينزل اشد العقوبة في كل مرة يعلم فيها بتلك الممارسات)) حتى انه تم استتباب الامن في المدينة بدعوة صلاح الدين التجار الى الابقاء على بضاعتهم والاستمرار بعملهم الاّ انهم اثاروا الخروج بما لديهم لعدم ضمان بقاء الوضع مستقراً .(نفسه، ص518-519، 524)

من الجدير بالذكر ان المؤرخ يذكر ان المسيحيين الارثذوكس كانوا في شدة من الحزن لاستسلام المدينة لانهم كانوا يفضلون قتل الفرنج(نفسه، ص524 بالاعتماد على: The history of the patriarchs of Alexanria, p.207) وهناك من الامثلة على امتعاض اهل القدس، منها ماذكره الشاعر الملك الامجد بهرام شاه (ت628هـ/ 1230م)، على ان السلطان صلاح الدين لما كثرت فتوحاته في السواحل، وكان لايتردد في فتح بيت المقدس لاهميتها وقدسيتها عند المسلمين ولكونها كرسي دين النصرانية، فيذكر الشاعر ان كان ببيت المقدس شاباً ماسور من اهل دمشق، كتب ابيات وارسلها الى الملك صلاح الدين الايوبي على لسان القدس مستنجداً.

يا ايُها المـلك الـذي ... لمعالــم الصُّلْبــان نكَّــسْ
جـاءت اليـك ظُلامَـه ... تَسعىْ من البيتِ المقـدّس
كُل المساجد طُهّرت ... وانا –على شرفي–مُنجّسْ

فكانت هذه الابيات هي الاخرى الداعية له الى فتح بيت المقدس للتخلص من الفرنج[20].

ومن اوجه تسامح صلاح الدين، مطالبة بعض امراء الاطراف من صلاح الدين إطلاق سراح جماعة من رعاياهم المقيمين بالقدس، كالامير مظفر الدين علي كجك كوكبري الذي طلب اطلاق سراح زهاء الف ارمني ادعى انهم من الرها، وطلب امير البيرة اطلاق سراح زهاء خمسمائة شخص ذكر لصلاح الدين انهم من بلدة وكان قدومهم لبيت المقدس لغرض العبادة، فأجابهم صلاح الدين لذلك واطلاق صراحهم .(ابن العبري، ص211؛ ابن واصل، 215/2؛ الذهبي، حوادث، 581–590هـ، ص25).

غير ان صلاح الدين كان قد وضع عل كل باب امير امينا من ابواب القدس الاّ انهم ((خانوا، ولم يؤدوا الامانة)) (ابن العديم، ص411؛ ابن الوردي، 95/2)، بل اخذوا اموال الفدية واقتسم الامناء فيما بينهم ((كان جماعة من الامراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين وتخرجونهم، وياخذون منهم قطيعة قرروها، واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج، فوهبهم لهم، فاخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل)) .(ابن الاثير، 397/9؛ العبري، ص211؛ المقريزي، 210/1)

واستلم السلطان من ((مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية، سوى ما اخذه الامراء وما حصلت فيه الخيانة)) .(العبري، ص211؛ المقريزي، 210/1)

ويذكر ابن شداد من اوجه عفة السلطان في اموال الفرنج، ان جمع الاموال على الامراء والعلماء والفقهاء، وأرسل من دفع فديته للمسلمين الى صور .(ابن الاثير، 398/9)

من خلال الاحداث نجد تسامح صلاح الدين لم يقتصر على الصليبيين بل تعدى اجابته لطلب الاطراف وان الموقف الذي ابداه صلاح الدين يظهر احترامه وتسامحه الذي وصل الى مستوى التساهل لتعم الفوضى اذ استغل امناء ابواب القدس الذين اخذوا الفدية خفية وخيانة واقتسامها فيما بينهم.

لكن ما حدث من فوضى واستغلال الاخرين له لا يقلل من قيمة ورفعة هذا القائد وكرم اخلاقه الذي ابداه بابهى صورة عندما سمح لفقراء الفرنج بالخروج وطلب من حراسه المناداة بشوارع بيت المقدس باطلاق سراح كل ما لا يملك لدفعه واعفائه منها والخروج من المدينة.

4-2: إطلاق سراح زوجات الفرسان وأُسر الملوك والسماح لهن بالألتحاق بازواجهن:

ان كرم اخلاق صلاح الدين اتجاه اسر الصليبيين في البيت المقدس كان يعني الشيء الكثير، اذ بلغ من كرمه وشهامته ما قام به، عندما يجمع امامه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين الذين قتلوا واسروا في معاركهم مع صلاح الدين وهم يبكون ويتشفعون فسال عن حالهن وما يطلبونه فقيل له انهن يطلبن الرحمة، فعطف عليهم وسمح صلاح الدين لكل واحدة لمن كان زوجها على قيد الحياة ان تتعرف عليه، وأطلق سراحه والسماح لهم بالخروج ان رغبوا .(الغامدي، ص218)

اما اللاتي ماتت ازواجهن او ابائهن فقد امر صلاح الدين بان يصرف لهن من خزائنه الخاصة بما يناسب عيشهن واعطاهن حتى ترددت السنتهم بالدعاء له عن رضى وقناعة .(ابن واصل، 216/2)

كان من بين نساء ملوك الروم، ملكة رومية عابدة متعبدة، كان لها من الحشم والعبيد والجواري العدد الكثير، ومن الاموال والجواهر النفسية شيء لا يحصى، فطلبت الامان من صلاح الدين لنفسها، ولمن معها، فامنها واخرجها من القدس .(ابي شامة، 220/3)

((كانت بالقدس ملكه رومية متعبدة مترهبة، في عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة... ولها حال ومال ومتاع واشياء واتباع فعاذت بالسلطان فاعاذها، ومن عليها وعلى كل من معها بالافراج، واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها، واسفاحها واعدالها، والصناديق باقفالها، وتبعها من لم يكن من اتباعها فراحت فرحى، وان كانت من شجنها قرحي)) .(ابن واصل، 216/2)

كما يبدو ان كان لصلاح الدين احتراماً لرجال الدين من البطاركة والقساوسة والرهبان فهذا ما تبين عندما سمح للملكة الراهبة بالخروج مع كل مامعها من الخدم والحشم وما تملكه من المجوهرات والمصوغات بحسب وصف المصادر لها .(المصدر السابق، 216/2) وهذا ماتصرف به صلاح الدين مع بطرياك القدس ايضاً عندما سمح له بالخروج بكل ما معه من الاموال الطائلة ولم ياخذ منه الاّ ما حدد من الفدية المفروضة على الرجال الخارجين من المدينة .(ابن الاثير، 398/9؛ ابي شامة، 221/3)

ويبدو ان السلطان سمح بلم الشمل مع الاسر عندما سمع بخروج زوجة الماسور كي، وهي ابنة الملك امارى، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والخيول والجواري اذ استاذنت من السلطان للاجتماع بزوجها والتحاق به إذا كان مقيماً في برج نابلس محبوساً به، فاذن لها والتحقت بزوجها مع ما معها .(ابن الاثير، 398/9؛ ابن واصل، 216/2)

اما امراة البرنس أرناط – صاحب الكرك–الذي قتل وسفك دمه في يوم حطين وهي الابرنساسة أم هنفري، وهي ابنة فليب، وهي صاحبة الكرك والشوبك فقد شفعت في ولدها المأسور، فوعدها السطان بان يطلق سراحه مقابل تسليم البلاد، فسارت الى الكرك، فلم يسمح الفرنج القائمين

بها، ولم يسلموها، فلم يطلق ولدها لكن سلمها مالها ومايتبعها .(الاصفهاني، 61/1)

ان شهامة صلاح الدين طالت زوجات الاسرى من الفرسان والملوك بل أطلق سراحهن مع مواقف الجود والكرم معهم، ولم يشاء ان يطلق سراحهم فحسب بل سمح للملكات والاميرات ان يخرجن بما لديهن من الحاشية والخدم وما يملكن من الاموال والمتاع وهنا تكمن الشهامة والجود والايثار.

2-5: السماح لنصارى القدس بالبقاء ولليهود بالعودة والنهي عن هدم كنيسة القيامة:

وتضرع نصارى القدس لصلاح الدين للسماح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد ادائها للفدية المقررة عليها وتعاهدوا عند الفقيه [21] له الاّ يزعجوا احداً بالخدمة في المدينة، فوافق صلاح الدين واستجاب لطلبهم مقابل شروط قابلوها بالتزام والقبول ودفعوا الجزية وعوملوا معاملة اهل الذمة فأصبح لهم ما على المسلمين من حقوق وواجبات. ((وأما نصارى الساكنون بالقدس فانهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعجوا، ويؤمنوا ولا يخرجوا.)) .(ابي شامة، 259/3) واقر أربعة من قساوسة النصارى بكنيسة القيامة ((واعفاهم ولم يَكلفهم الغرامة، واقام بمدينة القدس منهم ألوف)) .(ابن واصل، 231/2)

احترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين فعندما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله لبيت المقدس بهدم كنيسة القيامة وإزالة اثارها للحيلولة دون زيارتها من قبل زوارها (ابي شامة، 259/3) ((فمنهم من شار بهدم مبانيها، وتعفيه آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا: اذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت، وحرثت ارضها، ودمر طولها وعرضها، انقطعت عنها أمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع اهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة.)) .(ابن واصل، 231/2) في حين أشار اكثر الناس ان لا فائدة من هدمها وهدها فانه متعبد اهل الصليب ولا ينقطع عنها قصد اجناس نصارى ولو نسفت ارضها، فلما فتح الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (13-23هـ/ 634-644م) ﷺ في صدر الاسلام اقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان، فاعرض صلاح الدين عن هدمها تيمنا بموقف الخليفة عمر بن الخطاب وحفاظاً على مشاعر المسيحيين لأهمية هذه الكنيسة لهم .(رانسمان، ص525 بالاعتماد على: Bar- Hebraeus (Trans. Budge, pp. 326-7

بل أكد صلاح الدين ان المسيحيين يبجلون موقع الكنيسة لقدسيتها وليس مبنى الكنيسة فحسب وانهم لا يزالون يرغبون بالحج اليها ولا رغبة لديه في منعهم عن ذلك وفي الواقع فان الكنيسة أغلقت لثلاثة أيام فقط، وسمح لحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين (ابن شداد، ص82)

ان تسامحه لم يقتصر على الصليبيين بل امتد لشتمل عناصر اليهود الذين تسامح الاسلام عموما في العصور الوسطى، حيث سمح لهم بالعودة الى المدينة المقدسة بعد ان حرم عليهم الصليبيون دخولها عندما استولوا عليها عام (492هـ/ 1099م) وقد زار عدد من الرحالة الاوربيون اليهود تلك المدينة امثال بتاحيا الراتسبوتي [22].

وفي الواقع بتساهله مع الصليبيين واليهود بعد فتح القدس فان صلاح الدين فتح صفحة جديدة رغب فيها ان يوجه رسالة مفتوحة للمستعمرين مفادها ان لا خوف من بقاء القدس تحت السيادة الاسلامية وان التسامح والامان سيشمل الجميع دون استثناء.

2-6: عطف ورحمة صلاح الدين بفرنجة القدس بعد تنكر أبناء جلدتهم لهم:

ومن أوجه عطف صلاح الدين مع فرنجة القدس، فلما خرجوا من القدس نحو انطاكية وطرابلس استقبلهم فرسان الممالك المذكورة بفتور، ويذكر بعض المؤرخين انهم كانوا في بعض الحالات يقتلونهم ويجردونهم من احمالهم ما أمكنهم ويمنعونهم من دخول مدنهم وبهذه المعاملة فانهم كشفوا عن سوء معاملتهم لإخوانهم الفرنج في حين عاملهم أكبر عدو بهذا القدر من الإنسانية على حد قول البيرشاندور .(صلاح الدين، ص235)

فلما عاد أولئك ادراجهم بعد ان طردوا من طرابلس وانطاكية، امر صلاح الدين بان توزع عليهم الخيام وان يطعموا

مجاناً حتى يتمكنوا للإبحار الى الغرب، وامر السلطان صلاح الدين بنقل اعداداً منهم نحو الإسكندرية لتعجيل ترحيلهم، غير ان قادة مراكب جنوة وبيزة والبندقية رفضوا ان يقلوهم الى أوروبا الاّ ان يدفعوا اجرة السفر او يتزودوا بالكمية اللازمة من الأطعمة لتكفيهم طوال الرحلة، عندها اضطر المشرفون من المسلمين ان يزودوا الفرنجة بالمؤن اللازمة وإصدرت اوامرهم الى قادة السفن بعدم انزال أولئك العتقاء الفقراء الذين غدوا ذمة المسلمين الاّ في مؤانى فرنسا وإيطاليا للوصول الى أراضيهم.(ابن الاثير، 400/9) حتى وصفه استانلي لين بول قائلا: ((أبرز النظرة الحقيقة للطبيعة السخية وبصيرة الرجل الحاكم، وعليه فانه ربط جيوشه بجيوش العدو بروابط عرفان الجميل والولاء الشخصي له)). (استانلي لين بول،1995، ص116، 132- 133)

ولعل امام الهزيمة الكارثية التي حلت بالمستوطنين الفرنج عند قرون حطين وبفتح القدس فقد وصف جانوثان رأبي سميث واصفاً ما حل بهم ((وقد نزلت بالشرق اللاتيني والفن الصليبي، ضربة قاسية كادت تكون قاضية، على يد صلاح الدين ليست فقط خسارة الأرض والموارد ولكن ايضاً بسبب التدمير والتشتيت)) الذي حل بهم.(277/1)

ونجد شخصية صلاح الدين التي تمتعت بكاريزما قد تركت أثرا، انعكس على اعدائه من الصليبيين اذ وقعوا في دائرة الاعجاب له، وهو امرٍ نادر في عصر المواجهة بين المسيحية والاسلام على ارض الشام، فنجد شخصيته الجذابة المؤثرة في الاخرين كان لها دور في ان اتجه فريق من الصليبيين الى القدوم اليه والاعلان عن اقتناعهم بالاسلام، وتلك حقيقة مؤكدة اشارت الها المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة للحملة الصليبية الثالثة، فيذكر المستشرق البريطاني توماس ارنورلد Thomas Arnold في كتابة الدعوة الى الاسلام the spread of Islam اذ وردت اشارات تفيد ان الفارس الانجليزي روبرت اوف سانت البانوس. Rober st Albanus اتجه الى الاعلان عن اسلامه ويقال انه تزوج من احدى حفيدات صلاح الدين وذلك سنة .(580هـ/ 1185م). (عوض، 289؛ (Arnold, The spread of Islam, p.91

كما اتجه ستة من الجنود الصليبيين قبل معركة حطين عام (582هـ/ 1187م) الى اعلانهم اعتناق الاسلام وذلك بمحض ارادتهم. وخلال احداث الحملة الصليبية الثالثة واثناء حصار عكا أعلن عدد كبير من الصليبيين اعتناقهم للاسلام، على نحو اقر به مصدر صليبي .(عوض، ص289؛ لوبون، 2012، ص341-342) وهذا يثبت اثر شخصية صلاح الدين ومواقفه التي برزت صفاته مما جعله سبباً في اعتناق البعض للاسلام فضلا عما احتواه هذا الدين من مبادئ واخلاقيات سامية تجسدت في سلوك ابنائه حينذاك.

الخاتمة

اولاً: اثبتت الدراسة ان القيم الاخلاقية والانسانية يمكن ان تبرز عند القائد الشهم الشجاع وهو في ساحة الحرب مع العدو، وان الجوانب الاخلاقية عندما تغرس يمكن ان نثمر بفضائلها حتى وان كان المحارب خصيم لغيره، وهذا مابرز عند صلاح الدين الايوبي اثناء وبعد معركة حطين وفتح بيت المقدس، وما اشاد به مؤرخي الغرب والشرق حتى وصف من قبل البعض ب ((الاسطورة)).

ثانياً: اتضحت الدراسة، ان بالرغم ما اتصف به صلاح الدين من الحزم كقائد عسكري من خلال معركة حطين واثنائها، الا انه اتسم باحترامه للعهود والمواثيق المعقودة والتي خرقت من الجانب الصليبي ولعدة مرات، الا انه كان متعقلاً وصبوراً فحاول التعاطي بمرونة وحكمة وديبلوماسية قبل اعلان الحرب وانهاء المعاهدة مع الملوك الصليبية.

ثالثاً: ان المسلمين عامة وصلاح الدين خاصة، كان همهم تعزيز قيم العدالة والتسامح في المجتمع، وقد تجلى ذلك في ساحات المعارك، فبعد انتصاره بمعركة حطين، استقبل كبار الملوك الصليبين كاسرى، فاكرمهم واحسن استقبالهم من غير التعرض لهم و اهانتهم او التقليل من شأنهم.

رابعاً: مرونة صلاح الدين في التفاوض ومنح الأمان لأهل القدس بالرغم من رفض القادة الصليبيين وبقوة الاستسلام له الا ان إدارة دولته تصرفت بحكمة لحقن دماء أهل القدس ولكلا الجانبين، وعمد الى استقبال القادة الصليبيين فأحسن لقائهم واكرام مثواهم الاّ من تجاوز حدوده في التصرف.

خامساً: أظهرت الدراسة القيم الإنسانية لصلاح الدين في تحديد فدية متواضعة لفقراء القدس واغنيائها، بل أعفى الكثير منهم وسمح بخروجهم، وحلمه بإطلاق سراح زوجات الفرسان والقادة والملوك كنوع من الاحترام لحرمة النساء والأطفال.

سادساً: السماح لنصارى القدس بالبقاء والسكن وليهودها بالعودة اليها، وهذه رسالة يجسد فيها صلاح الدين قيم التسامح الديني والتعايش السلمي المتمثلة برسالة الإسلام الحقيقية، فضلاً عن احترامه للمشاعر الدينية بعدم هدم كنيسة القيامة وفتحها لزيارتهم لها بعد ثلاث ايام.

سابعاً: بنيت الدراسة إظهار عطف ورحمة السلطان صلاح الدين التي طالت فرنج القدس ايضاً عندما نظم آلية خروجهم من القدس ومنحهم كل ما يحتاجون له والتامين على حياتهم حتى وصولهم الى بلدانهم، وهنا برزت المعاني الإنسانية بأبهى صورة وهي التعاطف مع العدو.

الهوامش

(1) الامير أرناط: هو رينولد دي شايتون، اذ قضى في الاسر في جلب ستة عشر سنة، وعاد بعد ان أطلق سراحه الملك الصالح الى طرابلس ثم القدس، ثم تزوج من وريثة حصن الكرك والشويك ليحظى بإقطاعها وكانت هذه الوريثة ((ايتين دوميلي))، وصف بانه لأجلا اهوج العقل والراي، احمقاً مندفعاً يأخذه الغرور والاعنف في المملكة اذ لم يدرس احوال المسلمين ولم يدر انهم تغيروا وتغيرات اوضاعهم فترة طوال فترة سجنه لذا فكر بالانتقام منهم لأسرة وشجنه على يد المسلمين. عبد المنعم الهاشمي، موسوعة تاريخ العرب، العصر الايوبي، دار مكتبة الهلال، (بيروت: 2006م)، ص85

(2) بلدوين الرابع: ملك بيت المقدس (555-580هـ/ 1161-1185م) توج ملكاً في الرابع بعد وفاة والده عموري الاول وكان غلاماً صغير مصاباً بالجذام، حكم خلال الفترة (570-579هـ/ 1174-1183م)، تولى الحكم وهو بعمر ثلاثة عشر عاماً وكان أحد الاوصياء عليه الامير ريموند الثالث ابن عم عموري الاول صاحب مملكة طرابس، توفي عام (580هـ/ 1185م) عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، مطبعة رويال، (بيروت: 1958)، ص78

(3) فرسان الصليب: او فرسان الهيكل او فرسان المعبد المعروف بالجنود الفقراء للمسيح ومعبد سليمان (بالانجليزية: Knights Templar) تكونت هذه الطائفة في القرن الثاني عشر بهدف حماية حجاج بيت المقدس سنة (511هـ/ 1118م) عن طريق سبع فرسان قاموا بحماية الحجاج وكانت برئاسة جراند ماستر، واتبعوا قانون الرهبان البكيتين، اعترف بهم البابا سنة (521هـ/ 1128م) وشاركوا باولى معاركهم ضد المسلمين سنة (541هـ/ 1147م) وسمح بلبس الزي الابيض ووضع الصلبان الحمر على صدورهم واشتهروا بالتعصب الديني والقسوة. ستيفن رينسمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج2، ص187.

(4) قلعة ايله: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي مشتقة من ايلياء، وهي مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير. شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، ط8، دار صادر، (بيروت: 2010)، مج1، ص292.

(5) بلدوين الخامس: هو ابن اخت الملك بلدوين الرابع الذي توفي سنة (580هـ/1185م) بمرض الجذام، وهو ابن الملكة سيبلا Sybella، تولى عرش مملكة بيت القدس كوريث وهو بعمر الخامس عشر وباسم بلدوبن الخامس، وتولى ريموند الثالث صاحب طرابلس الوصاية على الملك الطفل، غير ان الملك الطفل توفي صيف (581هـ/ 1186م) وتزوجت امه الملكة سيبلا من جي دي لوزجنان ليتولى حكم مملكة بيت المقدس. ابن العبري، تاريخ الزما، ص207؛ ارنست باركر، الحروب الصليبية، ص ص81-82.

(6) معركة الرملة: هي المعركة التي منى الدين بهزيمة كبيرة اما الصليبيين (573هـ/ 1177م) في منطقة الر ملة نتيجة انشغال المسلمين بطلب الغنائم، فعاقب صلاح الدين كبار قادته بمصادرة اقطاعاتهم. ابن الاثير، 308/9؛ ابن تغري بردي، د.ت، 27/6.

(7) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة، الحموي، معجم البلدان، 470/4.

(8) طبرية: بلدة مطلة على بحيرة المعروفة ببحر طبرية وهي بطرف جبل وجبل الطور مطل عليها وهي من اعمال الاردن. الحموي، 17/4.

(9) الشواني: سفن حربية كبيرة، تحمل على متنها خمسمائة مقاتل، مزودة بمخازن الطعام والماء وتحمل على متنها الابراج والقلاع والسلاح بانواعه. سالم والعبادي، تاريخ البحرية، ص278.

(10) اليزك الصلاحي: لفظ فارسي تعني الطلائع التي تقوم بعملية الكشف والاستطلاع وجلب المعلومات حول معسكر العدو قبل البدء باي معركة، والصلاحي نسبة الى مؤسسها صلاح الدين، سعداوي، التاريخ الحربي، ص220.

(11) الزراقين: عود من خشب مجوف وفيه الماء المهلك المسموم ويمكن ان يطعن به ويرزق بمافيه وهو من خدع الحرب. سعداوي، هامش رقم (2)، ص182.

(12) من الملاحظ حجم مبالغة المؤلف في مدح صلاح الدين الايوبي وان ما ذكره حقيقياً من احداث

(13) من عادة شعوب الشرق ان المضيف لا يقتل الاسير اذ قدم له الطعام والشراب ويمنحه وفق ذلك الامان، ابن العديم، ص410؛ العيني، 63/2.

(14) ابن بارزان: هو الامير باليان الثاني دي ابلين، زوج الملكة كومنين، ارملة عموري الاول ملك بيت المقدس. الدواداري، كنز الدرر، 84/7.

(15) الدينار الصوري، ضرب في صور ايام الدولة الفاطمية وكان الذهب يساوي نحو خمسون فرنكا ذهبياً من النقود الحالية، وكان الدينار الصوري اقل قيمة من الجينار المصري. ابن شداد، النوادر، ص82 نقلاً عن لويس شيخو، تاريخ الصالح بن يحيى، هامش (2)، ص149.

(16) البطريرك هرقل: هو شخصية فرنسية ولد بمقاطعة افريجين Auvergne بجنوب فرنسا، وصار قسيسا بيت المقدس، ثم تم انتخابه ليمثل المملكة الصليبية خارجياً، وعلى اعقاب وفاة عموري تم انتخابه ليخلفه في المنصب عام 1180م. عوض، صلاح الدين، ص143.

(17) يلاحظ ان السلوك الشائن للبطريك هرقل قد جعل وليم الصوري ساخطاً على اوضاع المملكة الصليبية وجعله يتنبا ان كارثة ستحل ببني جلدته لضعف واختلاف اهوائهم، لقد امتلك وليم رؤية مستقبلية نادرة في ذلك العصر وعبر عنه صراحة وبكل جرؤه ما كان سبباً في الفتك به فمات مسموماً على الارجح في 29/ سبتمبر 1186م، قبل اقل من عام على دخول صلاح الدين للقدس فاتحاً. عوض، ص144-145.

(18) الاسطورة: حكايات خارقة تتناقلها الشعوب وهي متوارثة يتلقاها الخلف عن السلف وتتناقلها الالسن ولا تدون او تسجل، وهي تختلف عن الخرافة كونها تنقل جانباً من الحقائق التاريخية. عوض، صلاح الدين، ص287.

(19) يلاحظ دخول صلاح الدين بعالم الاساطير والاعمال الادبية، منها الادب الفرنسي كحكايات رومانسية منها ((حكايات منشد مدينة ريمس))، وهناك من اسطورة صلاح الدين تشكلت بصورة فعلية في عصر الاديب دانتي في كتابه الكوميديا الالهية، وفي مسرحيات الكتاب الالماني ليسنج. عوض، صلاح الدين، 2008، ص302-306.

(20) لعل العامل الثاني في تنشيط الحركة الادبية في مدة حكم بني ايوب الاّ هو الحروب الصليبية، التي اثارت العواطف وبعثت الشعراء الى القول والاجادة للحث على استرداد القدس وتمجيد البطولات والتي كان للشاعر بهرام شاه دور في ذلك. بهرام شاه الايوبي، 1983، ص16.

(21) الفقيه: هو ضياء الدين عيسى الهكاري (ت585هـ/ 1189م) وهو من اعيان امراء عسكر صلاح الدين ومن قدماء الاسدية. ابي شامة، الروضتين، 3/ هامش(1)، ص259.

(22) بتاحيا الراتسبوني (ت614هـ/ 1217م) Petachia of Ratisb هو أحد علماء اليهود في المانيا قام برحلته (رحلة الربى بتاحيا الراتسبوني) موفوداً من الهيئات الدينية اليهودية للاطلاع على احوال اليهود بالشرق، وجاءت رحلته على فلسطين والقدس عشية دخول صلاح الدين للقدس وقبلها فكان كشاهد عيان رصد وعبر وأثنى على كل ما راه، فقد اشار الى قلة عدد اليهود فيها، وبعد تحريرها عام (583هـ/ 1187م) تزايدت اعدادهم فيها. (الراتسبوني، مقدمة المحقق، 2012، ص16-32.

المصادر والمراجع

اولاً: المصادر:

ابن الاثير: عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم الجزري (ت630هـ/ 1232م).

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق: عبدالقادر احمد طليمات، دار الكتب الحديثة، (القاهرة: 1963).

الكامل في التاريخ، تحقيق: شيخ خليل مأمون شيحا، ط3، دار المعرفة، (بيروت: 2011).

الايوبي: مجد الدين بهرام شاه الايوبي (ت628هـ/ 1230م).

ديوان الملك الامجد، دراسة وتحقيق: ناظم رشيد، مطبعة وزارة الاوقاف والشؤون الدينية، (د.م: 1983).

البداري: الفتح بن علي بن مُحَمَّد الاصفهاني (ت643هـ/ 1254م).

سنأ البرق الشامي (562-583هـ/ 1166-1187م)، تحقيق: فحية البنراوي، مكتبة الخانجي، (القاهرة: 1979).

ابن تغري بردي: جمال الدين ابي المحسان الاتابكي (ت874هـ/ 1469م).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، (القاهرة: د.ت).

ابن جبير: ابو الحسن مُحَمَّد بن احمد الكناني الاندلوسي (ت614هـ/ 1217م).

رحلة ابن جبير، دار الكتب اللبناني، دار الكتب المصري، (بيروت، القاهرة: د.ت).

ابن الجوزي: ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن مُحَمَّد (ت597هـ/ 1200م).

المنتظم في تاريخ الملوك والامم، تحقيق: مُحَمَّد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا، مراجعة: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، (بيروت: د.ت).

ابن خلدون: ابو زيد عبدالرحمن بن مُحَمَّد الخضرمي (ت808هـ/ 1405م).

مقدمة ابن خلدون، ط1، دار القلم، (بيروت: 1978).

ابن خلكان: ابي العباس شمس احمد بن مُحَمَّد بن ابي بكر (ت681هـ/ 1282م).

وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، (بيروت: 1978).

الدواداري: ابو بكر بن عبدالله بن ايبك (ت736هـ/ 1335م).

كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع بعنوان (الدر المطلوب في اخبار ملوك بني ايوب)، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار احياء الكتب العربية، (القاهرة: 1972).

الذهبي: شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ/ 1347م).

تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط2، دار الكتاب العربي، (بيروت: 2002).

الزبيدي: محب الدين ابو الفيض السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي (ت1025هـ/ 1791م).

ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب، تحقيق: صلاح الدين منجد، ط2، دار الكتاب الجديد، (بيروت: 1983).

سبط ابن الجوزي: شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت654هـ/ 1256م).

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان وقائع 495-589هـ، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، (حيدر اباد: 1951).

السبكي: ابو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين (ت771هـ/ 1369م).

طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو و محمود محمد الطناحي، دار احياء تراث العربية، (القاهرة: د.ت).

ابو شامة: شهاب الدين ابي محمد عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت665هـ/ 1266م).

الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2002).

ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع بن تيمي الاسدي (ت632هـ/ 1234م)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين، تحقيق: محمد حسني مصطفى، ط1، دار القلم العربي، (دمشق: 2001).

سيرة صلاح الدين، تحقيق: بكر محمد ابراهيم، مراجعة: محمد شحاتة، ط1، دار صلاح الدين للتراث، (د.م: 2000).

ابن العبري: ابو الفرج جمال الدين الشماس تاج الدين هارون الملطي (ت685هـ/ 1286م).

تاريخ الزمان، ترجمة: اسحق رملة: تقديم جان موريس فيبه، دار المشرق، (بيروت: 1991).

ابن العديم: كما الدين ابو القاسم عمر بن احمد (ت660هـ/ 1262م).

زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشية خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1996).

العماد الاصفهاين: ابو عبدالله محمد بن صفي الدين الكتاب (ت597هـ/ 1201م)

البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان، دراسة وتحقيق: محمد علي الطعان، مؤسسة حمادة، (اربد: 2003).

خريدة القصر في جريدة العصر، الجزء الثاني، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، (دمشق: 1959)، الجزء الثالث، تحقيق: محمد بهجة الاثري، منشورات وزارة الاعلام، (د.م: 1976).

الفتح القسي في الفتح القدسي او حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2003).

ابن العماد الحنبلي: ابو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ/ 1678م).

شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1998).

العيني: بدر الدين ابي محمد محمود بن احمد بن موسى (ت855هـ/ 1273م).

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، تحقيق: محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب و الوثائق القومية بالقاهرة.

الغزالي:ابوحامد محمد بن محمد(ت505هـ/1111م)

التبر المسبوك في نصيحة الملوك المعروف بنصيحة الملوك، دراسة وتحقيق: محمد احمد دمج، ط1،المركز الإسلامي للبحوث،(بيروت:1987)

ابو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود الايوبي (ت732هـ/ 1331م)

تاريخ ابو الفداء المسمى المختصر في اخبار البشر، تحقيق: محمود ديوب، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1997).

الفيروز ابادي:مجدالدين محمد بن يعقوب البكري(ت817هـ/1414م)

القاموس المحيط، دار احياء التراث العربي(بيروت:1991)

ابن قتيبة: أبو محمد عبداللة بن مسلم الدينوري(ت276هـ/889م)

عيون الاخبار_المجلد الثاني: كتاب السلطان-كتاب الحرب-كتاب السؤدد، دار الكتب المصرية(القاهرة:1925)

المقريزي: تقي الدين علي بن عبدالقادر بن محمد (ت845هـ/ 1441م).

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1997).

مؤلف مجهول: (ت655هـ/ 1257م).

تاريخ دولة الاكراد والاتراك، تاريخ دولة الاكراد، دراسة وتحقيق: موسى مصطفى الهسنياني، ط1، مطبعة جامعة دهوك، (دهوك: 2010).

النويري: شهاب احمد بن عبدالوهاب (ت733هـ/ 1332م).

نهاية الارب في فنون الادب، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2004).

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/ 1298م).

مفرج الكروب في اخبار بن ايوب، ج2، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، (القاهرة: د.ت).

ابن الوردي: عمر بن مظفر بن عمر بن ابي الفوارس (ت749هـ/ 1348م).

تاريخ ابن الوردي، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1996).

اليافعي: عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان (ت626هـ/ 1228م).

مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1997).

ياقوت الحموي: شهاب الدين بن عبدالله الرومي (ت626هـ/ 1228م).

معجم البلدان، دار صادر، (بيروت: د.ت).

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

ابو خليل: شوقي.

المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام حطين بقيادة صلاح الدين الايوبي، ط1، دار الفكر، (دمشق: 2005).

احمد:عزت السيد

عادل العوا اخلاقه وفلسفته الأخلاقية، دار النهار (بيروت:2017)

آرمسترونغ: كارين

الحرب المقدسة الحملات الصليبية واثرها على العالم اليوم، ترجمة: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، (بيروت: 2005).

باركر: أرنست.

الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، دار النهضة العربية، (بيروت: د.ت).

البشير: مُحَمَّد بشير مُحَمَّد

القيم الحضارية مفهومها واهميتها ووسائل تطبيقها في السنة النبوية،جامعة جازان (الرياض:2008)

توفيق: عمر.

الدبلوماسية الاسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، دراسة تحليلية وثائقية في التاريخ الدبلوماسي (491-690هـ/ 1097-1291م)، مؤسسة شباب الجامعة، (الاسكندرية: د.ت).

مملكة بيت المقدس الصليبية، مطبعة رويال، (بيروت: 1958).

الجومرد: جزيل وجاسم ناصر عبدالرزاق الملا.

سيرة صلاح الدين في الدراسات الاستشراقية الناطقة بالانكليزية، مؤتة للبحوث والدراسات، (د.م: 1998).

الحق:مُحَمَّد امين

القيم السلامية في التعليم واثارها على المجتمع، مج9،مجلة دراسات الجامعة الإسلامية العالمية، (شيتاغونغ:2012)

حمادة: مُحَمَّد ماهر.

دراسة وثيقة للتاريخ الاسلامي ومصادرة في عهد بني امية حتى الفتح العثماني لسوريا ومصر 40-922هـ/ 661-1516م، مؤسسة الرسالة، (بيروت: 1985).

دعكور: عرب حسين.

تاريخ الفاطميين والزنكيين والايوبيين والمماليك وحضارتهم، ط1، دار النهضة العربية، (بيروت: 2011م)

رانتسبوني: بتاحيا

رحلة الربى بتاحيا الراتسبوين 571-576هـ/ 1175-1180م، ترجمة وتحقيق: فؤاد عبدالرحيم الدويكات، ط1، دار الكتاب الثقافي، (د.م: 2012).

رانسمان: ستيفن

تاريخ الحملات الصليبية، مملكة القدس والشرق الفرنجي، 1100-1187م، ترجمة: نور الدين خليل، (د.م: د.ت).

رستم: سعد

الفرق والمذاهب الاسلامية منذ البدايات (النشاة، التاريخ، العقيدة، الوزيع، الجغرافي، التدقيق: اسماعيل الكردي، ط1، دار الاوائل للمشر والطباعة، (دمشق: 2009).

زكار: سهيل.

حطين والفتح الصلاحي للقدس، دار الفكر، (بيروت: 2002).

الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تاليف وتحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق: 1995).

الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، المصادر العربية مؤرخة القرن السابع (8)، (دمشق: 1995).

سالم: سحر السيد عبدالعزيز.

دراسات في تاريخ مصر في العصر الايوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، (الاسكندرية: 2005م).

السحيم: مُحَمَّد بن عبدالله بن صالح

القيم الحضارية في رسالة خير البشرية، الدراسات الإسلامية، العدد الثالث، مج 44، مجمع البحوث الإسلامية (اسلام اباد:2009)

السرجاني:راغب

الاخلاق والقيم في الحضارة الإسلامية، (د.م:2011)

سعداوي: نظير حسان.

التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة: 1957).

سويد: ياسين.

حروب القدس في التاريخ الاسلامي والعربي، درا الملتقى للطباعة والنشر، (بيروت: 1997).

شاندور: البير.

صلاح الدين البطل الانقى في الاسلام، ترجمة عن الفرنسية: سعيد ابوالحسن، مراجعة وتعليق: نديم مرعشلي، تقديم: العماد مصطفى طلاس، ط2، منتدى اقراء، مكتبة عين الجامعة، (دمشق: 1993)

شبارو: عصام مُحَمَّد.

السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري السلاجقة-الايوبيين (647-648هـ/ 1055-1250م)، دار النهضة العربية، (بيروت: د.ت).

الصلابي: علي مُحَمَّد.

صلاح الدين الايوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ط1، دار المعرفة، (بيروت: 1994).

الصوري: وليم.

تاريخ الحروب الصليبية: ترجمة: سهيل زكار، (دمشق: 1990).

عاشور:

مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، (بيروت: 1972).

عبدالحكيم: منصور.

صلاح الدين المنقذ المنتظر، المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبدالرؤوف سعد، ط1، دار الكتاب العربي، (دمشق، القاهرة: 2008).

العريني: الباز.

تاريخ الحرب الصليبية، ط1، (بيروت: 1993).

مصر في عصر الايوبيين، مطبعة الكيلاني الصغير، (القاهرة: د.ت).

علي: مُحَمَّد كرد.

خطط الشام، مكتبة النوري، (دمشق: د.ت).

علي: السيد علي.

تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، ط1، (القاهرة، 2004).

عوض: مُحَمَّد مؤنس.

صلاح الدين الايوبي بين التاريخ والاسطورة، ط1، عين للدراسات والبحوث، (الجيزة: 2008).

الغامدي: عبدالله سعيد مُحَمَّد

صلاح الدين والصليبيون، استرداد بيت المقدس، دار الفضيلة، (بيروت: 1985).

غوانمة: يوسف حسن.

معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، خطاب جديد في العجز الاسلامي والعربي والمشروع النهوضي العربي الوحدوي، (دار الفكر: 1982).

لوبون: غوستاف

حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للنشر، (القاهرة: 2012).

لين بول: ستانلي

صلاح الدين وسقوط بيت المقدس، ترجمة: فاروق ابو جابر، اشراف: زوكس بن زايد العزيزي، ط1، مطابع الاهرام التحارية، (قيلوب: 1995).

محمود: احمد عبدالعزيز

اجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الايوبي رجل عصره، مكتبة التفسير للنشر والاعلام، (اربيل: 2013).

المطري: مُحَمَّد العروسي.

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار العرب الاسلامي، (بيروت: د.ت).

مؤنس:حسين

الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، (الكويت:1977)

نوري: دريد عبدالقادر.

سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة 570-589هـ/ 1174-1193م، مطبعة الارشاد، (بغداد: 1976).

ثالثاً: الرسائل الجامعية الغير مطبوعة باللغة العربية

ابراهيم: سازان حسين

الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الايوبي 534-587هـ/ 1139-1191م/، دراسة في مسيرته وعصره، رسالة غير مطبوعة، (كلية الاداب، جامعة صلاح الدين، 1994).

دوسكي: شفان ظاهر.

الملك الافضل علي بن صلاح الدين الايوبي دراسة في دوره السياسي ومجهوده العسكري والحضاري (565-622هـ/ 1169-1225)، رسالة غير مطبوعة، (كلية الاداب، جامعة دهوك، 2004)

بهایێن شارستانی د شەرێن سەلاحەددینی دا

(شەرێ حتین و ڤەکرنا بەیتولمەقدەس وەك نموونە)

پوختە

ئارمانج ژ ڤێ ڤەکۆلینێ رووناهی بەردانە ل سەر بهایێن شارستانی و ئەو رامانێن مروڤایەتی و رەوشتێن باش کو وەك هەلویست د شەرێن سەلاحەددیندا –شەرێ حگین و ڤەکرنا بەیتولمەقدەس – دەرکەفتین، وئەڤە ژی ژ بەر گرنگیا رویدانێ و پەیدابوونا هەلویستێن بەرچاڤە. پێَشکەشکرنا بۆچوونێن هندەك ژ مێژوونڤیسێن رۆژئاڤایی د هەلسەنگاندنا سەرکردەبوون و مروڤایەتیبوونا کەسایەتیا سەلاحەددینی بهایێ ڤێ ڤەکۆلینێ ژ لایێ ئەنجام و دەرئەنجامان ب هێزتر دکەت.

ئەڤ ڤەکۆلینە ل سەر پێشەکی ودوو سەربابەتان دابەش دبیت : ل پێشەکیێ بهایێن شارستانی هاتیە پێناسەکرن، ب تێگەهێ ئیسلامی و شلوڤەکرنا هندەك ژ وان بهایانو بنەما وکرستێن شارستانیێ ل دویڤ تیورێن هندەك ژ پێشەنگێن هزرا ئیسلامی، و سەربابەتێ ئێکێ هاتیە تەرخانکرن بۆ رویدانێن شەرێ (حتین) و پێنگاڤێن دیپلوماسیێن هاریکار بۆ بەرقەرارکرنا ئاگربەستان و پاشی ب هێزکرنا ئەنیا شەری و بەرهەڤکرنا بارودوخەکێ گونجای بۆ بجهەینانا پلانا وی یا لەشکەری کو ل دویماهێ بەرهەمدار بوو، زێدەباری قەنجیا وی ل گەل سەرکردێن دەستەسەرکریێن خاچ هەلگران.

لێ سەربابەتێ دووێ بەحسێ پێنگاڤێن ڤەکرنا قودسێ دکەت، و پشکداریا سەرکردە ل ڤەکرنا وێ،پاشان دانوستاندن و پێدانا ئەمان و پشتراستیێ و ئاماژێن مروڤایەتی د دەستنیشانکرنا (فدیە) یا کیم و بەخشینا گەلەگ ژ وان ژ دانا وێ (فدیێ) و و سیفەتێ لێبورینێ د ئازادکرنا هەڤژینێن سیارکار و پاشایان ب رێزگرتن و بهاگرتن، پاشان رێپێدانا جیگیربوونا فەلەیێن قودسێ ل باژێری و زڤرینا جوهیێن قودسێ و هێلانا کەنیسا (قیامە)، و هەڤسۆزیا سەلاحەددینی ل گەل ئەوروپیان(فرنج) یێن قودسێ و بەرهەڤکرنا پێدڤیێن وان و مسوگەرکرنا پاراستنا وان ژ دەرکەفتن ژ قودسێ هەتا گەهشتنا ب وەلاتێن خۆ.

پەیڤێن کلیلی: بهایێن شارستانی، سەلاحەددین، شەرێ حتین، ڤەکرنا بەیتەلمەقدەس

THE CIVILIZED VALUES OF SALAH AL –DIN AL-AYYUBI'S WARS
THE BATTLE OF HATTIN AND THE CONQUERING OF JERUSALEM—AS A MODEL

SIPAN HASAN ALI
Dept. of History, College of Humanities, University of Duhok, Kurdistan Region-Iraq

ABSTRACT

The research aims to shed light on the civilized values and what it carries from the meanings of humanity and good manners which emerged as positions in Salah al -Din's wars -- the battle of Hattin and the conquering of Jerusalem—for the importance of this event and the distinctive positions that emerged from it. Perhaps, presenting views of the west historian of assessing Salah al-Din's humanitarian and leadership personality is one of the most important objectives of the research and its data.

The research is divided into introduction and two main sections. The introduction includes the definition of the civilized values in the Islamic concept, and clarifying some of those values and the characteristics and its elements according to the theories of a number of pioneers of Islamic thought. Concerning the first section, it deals with the events of the battle of Hattin and its diplomatic steps in the ceasefire, and then strengthening the military front and creating the appropriate conditions for the implementation of his military plan which resulted in the desired results and honoring the prisoners of the crusader leaders.

Whereas the second section is covered with the steps of conquering Jerusalem and leader's participation in conquering it; then, negotiating and granting safety and meanings of humanity were manifested in it by specifying the modest ransom and exempting many of them, as well as the aspects of tolerance in the release of knight's and king's wives in an honorable way. Then, allowing the Christians of Jerusalem to settle and the returning of its Jews, maintaining the Alqiama church, and the kindness of Salah al-Din to the French of Jerusalem and giving them what they need and protecting them until they leave and return to their countries.

KEY WORDS: Civilized values, Salah al –Din, the battle of Hattin , the conquering of Jerusalem